الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

مقامات الصوفية

عند السالكين والواصلين والمتمكنين

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المقامات نتائج مشاهد التوحيد

المقامات نتائج مشاهد التوحيد، وللتوحيد اثنا عشر مشهداً، لكل مشهد مقام خاص، ولكل مقام منه أحوال بحسب مراتب هذا المقام، وأعلى المقامات مشهد التوحيد الذى يمنحه الرسول من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليهم، وكل حال من الأحوال والمقامات السابقة تضمحل فى جانب هذا المقام العلى، لأن الرسل صلوات الله عليهم منحوا قوة الحجة فلا تطمئن قلوبهم إلا بانبلاج الحقائق التى كلفوا بها، أما الحقائق التى منحوها للعلم والشهود فهى مقامات تسليم وإيمان، وأنت تعلم أن مقامات التسليم والإيمان فوق كل مقامات العلم والبرهان، لأن تلك المقامات العلية لا يبلغ أكمل كامل فيها مبلغ العلم البرهانى لعلوها ونزاهتها وقداستها عن إدراك الحيطة، وبقدر ما منحوا من القبول بالحجة البالغة منحوا التسليم الأكمل بتلك الحقائق العالية، وهنا أنبه فكرك إلى أن سر القدر قد يخفى على كثير من الرسل الكرام لإقامتهم فى الدعوة إلى الله، وهو معقول لذوى العقول، حتى إذا أثلجت صدورهم بالمبادئ الشرعية، وسلموا تسليماً، بينت لهم الحقائق العالية المتعلقة بأسرار القدر وغيره. وقد تبين تلك الأسرار لأفراد من أولياء الله تعالى، خصوصاً الذين لم يقوموا مقام الرسل فى الدعوة والإرشاد، وهنا أقبل بقلبك. رد الخضر على الكليم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ الكهف ٦٧-٦٨، وقول الكليم له: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ الكهف ٦٩، لأنه مأمور من الحق الذى قوله الحق، وليس مراد الخضر بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ الكهف ٦٧، أن الكليم لا صبر له، بل لأن الخضر يعلم أن الرسل صلوات الله عليهم منحوا قوة الحجة، فلا تطمئن قلوبهم إلا بانبلاج الحقائق التى كلفوا بها.

مقامات قرب دونها مقعد الصدق ... كيف وفيها يحجب الجمع بالفرق
مقامات تمكين على منهج الهدى ... لها كل شئ ظاهر ينبى بالحق
لمن ورثوا أنوار فرد مكانة ... وقد جملوا بعد المحبة بالشوق

صلاة على شمس الهداة حبيبنا صلاة بها نحظى بمنزلة الصدق
تلك المشاهد للروح المجملة تلك المشارب للذات المكملة
تلك المراتب للأفراد قد ظهرت والشمس قد أشرقت تنبى بعاطفة
عنى خذوها بنور القلب إن بها وجه العلى الجلى للمواجهة
والوصف والاسم فى ذات مطهرة لاحا يشيرا بنور عن منازلة
راح طهور من الإحسان واهبه بالفضل مولاه عن أسرار سابقة
بشرى لمن شربوا بشرى لمن شهدوا فازوا بوصلى وقربى عن معاملة

الباب الأول

مقام السماع

السماع الممدوح شرعاً

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ النساء ٤٦، وفى الأثر: (الصوت الحسن نَفَسٌ من نَفَسِ الرحمن).

معلوم أن الأسرار الإلهية المتعلقة بكمالات الأسماء والصفات لا طريق لها إلا السماع، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل ٧٨.

فجعل الله تعالى الأبصار لتشهد الكائنات، وبها تظهر الآيات للأفئدة، وخلق الله السمع ليصغى إلى كلام الله تعالى وبيان رسله عليهم الصلاة والسلام، فيوصل تلك الأنوار إلى الأفئدة، فتفقه أسرار الله، وتنعقد على الحق. وقبل أن أتكلم على السماع عند القوم، أبين الخلاف فيه، وقد وضحت جملاً منه فى كتاب "معارج المقربين"، ولما كانت النفوس قبل تزكيتها وتطهيرها من لقسها، ينبغى أن يكون سماعها رنين سياط الإنذار والتخويف، حتى تطهر من طمع فى الدنيا وغرور بها، ثم يترقى السماع إلى سماع البشائر بالملاذ الباقية والنعيم الأبدى، حتى تزكو من الإخلاد إلى الأرض، ثم يكون السماع بنغمات الرغبة والرهبة، ليصفو جوهر النفس، صفاء يجعله مُستعداً لتلقى العلوم النافعة، ثم يكون السماع بسماع الحكمة العالية لاستجلاء تلك الحقائق فى جوهر النفس، فتنجذب بالكلية إلى عالمها الأعلى، وتفارق مفارقها، وترى الدنيا كما وصفها الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ آل عمران ١٨٥، والمتاع هو سقط البيت الذى لا ينتفع به، وكفاها تعسة أن الله تعالى سماها دنيا، لأنها مأخوذة من الدون، فإذا صفا جوهر النفس وقبل العلوم النافعة بطريق السماع، واتصل بعالمه الأعلى بحسب الحقائق العلمية التى نقشت عليه، انفتق رتق القلب، فصغت أذن القلب إلى نغمات الكائنات وفقهت تسبيح كل شئ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الإسراء ٤٤، وللكائنات نغمات تبتهج بها الأرواح، متى صغى إليها

القلب، اطمأن بمُقلبه سبحانه، ومتى اتصلت النفس بعالمها الأعلى التى هى منه، سكنت إلى مُنفسها سبحانه، وإذا اطمأن القلب بمقلبه وسكنت النفس لمنفسها، كان السماع معراجاً للوصول وبراقاً للقبول، يحصل به للنفس سياحتها الروحانية فى ملكوت الله الأعلى، وقد شرحت لك السياحة الروحانية فى كتاب " الفرقة الناجية" ، ومتى ساحت النفس فى ملكوت الله الأعلى، تجافت عن دار الغرور واتصلت بالنور، فحصل لها الحضور وكل ذلك بسر السماع.

السماع المذموم شرعاً

وقد يخطئ بعض الناس فيذمون السماع. نعم، ولكن يلزم أن يكون ذمه من الجهة التى يُذم منها، فإن أهل النفوس النجسة التى لم تتزك، ولم تخرج عن مقتضيات عناصرها، إذا سمعوا الحكمة جذبتهم حظوظهم إلى ما لا يحمد، فمنهم من يعينه السماع على عمل المحرم كالزنى وشرب الخمر والقتل وبذل الأموال فى غير الوجهة الشرعية، وإثارة العواطف وفساد الأخلاق، وهذا السماع مُحرم شرعاً، ويجب أن يحجر على عمله، ومن السماع ما هو أشد حرمة من هذا، وذلك أن يجلس أهل النفوس النجسة فى مجالس أهل السماع مع العلماء الربانيين فى خلواتهم، أو تؤخذ إشارات الرجال وأسرارهم، فتنشر بين العامة ممن لم يحصلوا العلوم الشرعية اللازمة لهم من التوحيد والفقه وعلم الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والإيمان بيوم الحساب، ومعرفة الأسباب المرتبطة التى وضعها الله لعمارة الكون وربط بعضه ببعض سبحانه، وجعلها دلائل على وحدانيته وبراهين على حكمته، فإن أمثال هؤلاء إذا جلسوا فى تلك المجالس، أو سمعوا هذه الحكمة أخرجتهم عن الاعتدال فضلوا وأضلوا، نسأل الله السلامة.

وهذا فى الشرع من أكبر الكبائر، لأن الشرع ينظر إلى نتائج الأعمال، وهذا السماع ربما أنتج القول بالحلول، أو أنتج ترك الأعمال الشرعية، أو أنتج محو الأحكام وعدم الأسباب حتى قد عمت البلية، فادعى تلك المعانى أهل الجهالة، ممن لم يعرفوا أنفسهم فضلاً عن معرفة الله سبحانه وأيامه وأحكامه، وجعلوا تلك الأسرار العلية مصائد للدنيا، فطلبوا الدنيا بالدين، قال ﷺ: (ملعون ملعون ملعون، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: من طلب الدنيا

بعمل الآخرة)، وقال ﷺ: (تعس عبد الدرهم والدينار تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش). وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ البقرة ٤١.

وإنى لا أعذر رجلاً نشر الحكمة بين العامة فأفسد عقولهم وأعذر العامة، ولا ألوم على من بخل بالحكمة غيرة عليها أن يتناولها غير أهلها، وكيف توضع الجواهر تحت أقدام الخنازير؟!

وعلى ذلك فالعاقل لابُد أن ينظر قبل الحكم إلى نتائج العمل، فإن أنتج خيراً فخير، وإن أنتج شراً فهو محرم لأنه شر، وكيف يُحرم السماع؟! وإنما تأسست الأديان على السماع، وما من نبى بعثه الله إلا وأنزل عليه ما يتلوه على قومه، وما من عَالِم بين قومه إلا وقام يبين للناس ما أنزله الله على رسُله عليهم الصلاة والسلام.

السماع عند السالكين

الحق غيب والدلائل العقلية خفية، والروح آلهة والسماع طهور، وإنما تحتسيه الأرواح وإن ظهرت الأشباح، والنور يخفى على من لا بصر له، وقد يخطف الأبصار، والحكمة مقتضية، ومن منع الحكمة أهلها ظلمهم، ومن أباحها لغير أهلها ظلمها، ولا نترك الحق لكثرة المنكرين، ولا نبيحه لغير أهله رغبة فيما تميل إليه النفس من الضنين، فإن قويت الصولة اشتدت الجولة، فمعذور من غلبه الوجد وإن حصلت به المضرة للغير، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ البقرة ٢٦، وإنما المؤاخذة على من يضع الجواهر تحت أقدام الخنازير، ومن يبيح أسرار الحكمة لأهل الجهالة الغافلين، وإن العالم الربانى ليبذل نفسه قبل أن يبذل نفائس الحكمة، ولذلك تراهم ائتنسوا بالوحوش، واستلذوا الفيافى، وابتهجوا بالجلوس فى المقابر وتلذذوا بآلام الجوع والعرى إعظاماً للحكمة، وإجلالاً للمعرفة وخشية على تلك النفائس أن يتلقاها غير أهلها، وسُنة العارفين فى سيرهم مجلس للأحكام ومجلس للأعمال، ومجلس لتزكية النفوس وتعليم الحكمة، ومجلس للحاكم الواحد القهار القادر الحكيم حتى تتوازن القوى، ويكون المسلمون أمة وسطاً كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ البقرة ١٤٣.

فمن لم ينتفع بالربانيين فى كل مجلس من تلك المجالس، فهو فى حظ مبعد وهوى حاجب وضلال مهلك، نعوذ بالله، والسالك الذى يجد شأناً من شئون الرجل ولا يميل إلى بقية شئونه، فهو سالك إلى نار جهنم. قال الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران ٧، وقال مُشنعاً على المغرورين بأنفسهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة ٨٥، وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ الأعراف ١٧٥، وقال لمن لم يتلق بيان الكتاب والسنة عن العلماء الربانيين: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ المائدة ١٣.

ولا يعلم مراد المتكلم إلا المتكلم، أو من أعلمه المتكلم، فتلقى أسرار الكلام من المتكلم بالنيابة عن نفسه، أو ممن علمه المتكلم بالاستحضار، أو ممن ورث هذا العلم بالحضور والمواجهة، وليس هذا دعوى يدعيها الجاهل المغرور، ولكنه نور الله الذى لا يعطيه إلا لمن أطاعه، وتنزه ربنا أن يعصاه العبد ويطيعه، إذا قدر سبحانه فى أزله أن يطيع عبده ويجيب، قدر له أزلاً التوفيق لطاعته والعمل بوصاياه، وهداه سبيله القويم وصراطه المستقيم.

السماع عند الواصلين

تصفية السر عما سوى الحق لاستجلاء أنوار الجمال وبهاء الجلال وضياء الكمال، وانبلاج أنوار المواجهات فى المنازلات، والمسارعة إلى مقابلات الصفا والوفا، والمسموع نغمات التسبيح بالتلويح، من روح قرآن الحقائق سماعاً من الموصوف، عند الاتحاد فى المعروف أو قبساً من مشكاة الأنوار، عند الفناء بالأسرار فى تنزل القرآن، أو من الختم الوارث استحضاراً وبياناً ثم كشفاً وعياناً، وهو القول المثبت قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إبراهيم ٢٧.

والواصل صورة الرحمن، وهو فى الحقيقة الإنسان كملت مبانيه فصحت معانيه ولاحت معاليه، كشف الحجاب له عن حقيقته، فكان وهو فى هذا المقام العلى كأنه فى حمئه المسنون، أو فى قراره المكين، يشهد حقيقته ذُلاً واضطراراً ومسكنة وافتقاراً وجهوليته وظلوميته، فتلوح

أنوار المتجلى له فيه به، والمراتب محفوظة والمراقى مشهودة والمعانى ملحوظة، وهو الإنسان الكامل مشكاة الأنوار، مُجمل بالمعانى المحمدية شجرة زيتون المثال، ومصباح أنوار البيان وروح الكل فى الكل، إليه اشتاق رسول الله ﷺ، وهو القريب الغريب، جسمه بين الناس وقلبه معلق بالرفيق الأعلى، أرضى مبنى وعملاً، سماوى علماً وحالاً، حجبت عن الأبصار معانيه وصعبت على السالكين مراقيه، والسماع فى هذا المقام نفثات قدسية من مشكاة الأنوار المحمدية، فى روح فارغ مما سوى الله، وهو الكامل فى الحضرتين لا يقهر برزخه كثائف أمواج المشهد العلى فيتيه فى بادية الغلو، ولا يقهر مشهده العلى دخان البشرية فيحجبه عن منازل الأخيار، قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ الرحمن ٢٠، وفوق تلك المنزلة من السماع منازل نطوى بساطها ونخفى حقائقها، ضناً بالحكمة أن تعطى لغير أهلها، وإيثاراً لها عن وحول الجُهال، لم يسمع منى ولم يرو عنى منها فى سياحتى إلا رجل اصطفيته لنفسى، كنت أخشى على ماعونه أن يضيق فلا يفيق، وإذا به خرج من نفسه حتى صار أنا حساً ومعنى، ولولا أن أنوار الخلوة قاهرة، وأسرار التأله غالبة لقلت، ولكنه أخى وصاحبى، وإن خرج من نفسه بنفسى، حتى صار فى عينه عينى، ولكنى لا أقوى على ذلك فيه وله، لأن القلب لا يسع اثنين، وفرارى من البين، وقد ذكرت اسمه وتاريخه فى تراجم المضنون، وصحبته ووفاؤه هذا ميزان طريقى، وما كتبت فى المضنون لم يبح إلا لنفسى أو لهذا الإنسان الكامل، أما ما انتشر بين بقية الإخوان، فإنما هم كما قال الحكيم: (وللأرض من كأس الكرام نصيب).

أعلى مقامات السماع

وأعلى مقامات السماع أن يسمع الفرد الكامل، صورة الرحمن من الرحمن، حيث لا قيود ولا أعلام ولا حيطة ولا إمكان، وللقدرة عجائب تسجد على فنائها العقول، وتصعق على وهادها قبل جبالها النفوس، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ الأعراف ١٤٣.

هذا رذاذ من الحكمة وطل من المعرفة، إن صادف أرضاً خصبة من أرض القلوب، تفجرت منها ينابيع الحكمة، وأزهرت وربت وأنبتت من كل زوج، وإن صادفت أرضاً ملحة أو ذات

قيعان فأفسدت الحكمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ آل عمران ٧٣، وقال ﷺ فى الحديث الصحيح: (مَثَلَ مَا بَعَثَنِىَ اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِىَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِى دِينِ اللهِ عز وجل، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِىَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذِى أُرْسِلْتُ بِهِ).

والله تعالى أسأل، أن يأتى بالقوم الذين يحبهم ويحبونه، الذين تحققوا بالآخرة حتى كأنهم صاروا فيها، وتحققوا بالدنيا وزوالها فتجافوا عنها وفارقوها، وأشرف بهم الحق على قدس العزة والجبروت الأعلى، ففنوا عن الدنيا والآخرة، قال ﷺ: (الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرامان على أهل الله).

أكتب فى السماع، وأعلم أن له مضاراً بالعامة، ولكن سُنة الله فى خلقه أن الخير ينشر لأهله وإن أضر غيرهم.

وهذه الشمس المضيئة نهاراً تضر أعين كثير من الحيوانات، كالخفافيش والبوم والحيوانات المؤذية، ومع ذلك فإن الله تعالى أعلاها وأضاءها وسخرها، فلا تغيب عن أفق إلا وأشرقت فى أفق، مهما كان الضرر بها عظيماً، قال الله تعالى:﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ البقرة ٢٦.

وإنى أعوذ بالله أن أكتب ما كتبت لفتنة، أو لإظهار بدعة أو لفساد عقيدة، أو لإضعاف القوى العقلية، قال ﷺ: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُوله، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا، أَو امْرأَة يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).

على أنى لا أزكى نفسى، وأستغفر الله من كل ما كتبت مما هو من عجلتى الفطرية، ورعونتى النفسانية، ولا عصمة إلا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

عذر من أنكر السماع

أما السماع بالآلات والأوتار وذكر النساء والفخر والشجاعة وتجديد الضغائن وإثارة الخواطر، فلا شك أنه محرم، وأن المجتمعين عليه آثمون.

أما سماع الحكمة نثراً أو نظماً، الدالة على الخشوع والخوف من الله والرغبة فيما عند الله، والحاثة على ما أوجبه الله ورسوله ﷺ، فمتعين على كل مسلم، والمنكر عليه من جهة القائم به وعدم أهميته للقيام به معذور.

أما الحكمة الروحانية، التى تكشف للقلب أسرار مدلولها، حتى كأن السامع يتراءى ربه سبحانه وتعالى، إذا كان المجتمعون على السماع فيها تجملوا بالعلوم الشرعية وتحققوا باليقين الحق وقاموا لله بما أوجب وبما رغب فيه، فهى معراج القرب إلى الله جل جلاله، ومنكرها إما أن يجهلها وله العذر، لأن من جهل شيئاً عاداه، وإما أن يعلم فضلها ولكنه يخشى على المجتمعين أن تزل بهم القدم، فله العذر أيضاً فى إنكاره، ولكن عليه أن يتحمل معهم ليكون مزاجاً لهم، وقد تحمل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من فادح الآلام وعظيم الملام، بسبب تغنيه بالقرآن ما لا تتحمله الشُم الراسيات، ومن قرأ حديث الهجرة فى صحيح البخارى يذوق رحيق ما كتبت ويفقه بيان ما وضحت، ولا أرانى إلا مع من ينكر على السماع إذا أبيح لغير أهله، وإذا أشمخ للجاهلين به، فإنما هو طهور الأرواح لا ماء الأشباح، وبراق الوصول لا طريق العبور.

سماع ﴿أَلَسْتُ﴾ حنين الروح والعقل ... ومن منذها والفرد يلتمس الوصلا
سماع به عهدى القديم ولوعتى ... ومن قبلها قد كنت نوراً ولا فصلا
أحن إلى هذا السماع لعلنى ... أعود إلى بدئى فيسمعنى القولا
حنينى إلى هذا السماع ولوعتى ... إلى أن أرى الوجه الجميل ولا ظلا
ولولا حنينى للسماع لما رأى ... سوى من الأحوال ما جنن الأهلا
لأنهم أهل القبول تجملوا ... بما سمعوا لما أناهموا الطولا
تعالوا بنا نشتاق فالشوق جاذب ... إلى حضرة الإطلاق إذا كانت السؤلا

الباب الثانى

مقام التسليم

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ آل عمران ٢٠، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ لقمان ٢٢، ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ الزمر ٥٤، وقال سبحانه مخبراً عن خليله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام ٧٩، ومن دعاء النبى ﷺ: (اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك (وفى رواية وابن أمتك)، وعلى عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).

والتسليم والإسلام بمعنى واحد، ولذلك ورد فى بعض الروايات ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ البقرة ١٢٨، بالتشديد، لأن مدلول اللفظين الاستسلام لحكم الله وقضائه سبحانه، فالاستسلام للحكم شأن المؤمنين العارفين بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥ .

فوصفهم الله بصفات ثلاث:

١ بأن يرجعوا فى أمورهم إلى رسول الله ﷺ.

٢ وبأن يشرح الله صدورهم لما يحكم به.

٣ وبأن يسلموا تسليماً يُنبئ عن الرضا الحقيقى، لا تسليماً مشوباً بكراهة أو قبض صدر، فإن كثيراً من الناس يُسلم مكرهاً، وليس هذا بالتسليم عندنا.

والتسليم لقضاء الله فيما يجريه الله تعالى من الشئون، هو الميدان الذى تتسابق فيه همم المؤمنين، لأن العبد بين حالتين: شدة ورخاء، فالمؤمن الكامل يرضى عن الله سبحانه وتعالى فى الشدائد رضاً عن انشراح صدر، لعلمه بحكمة ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى له فى كل شأن حكماً تطمئن بها قلوب المؤمنين.

والمؤمن الكامل يشكر الله سبحانه وتعالى عند الرخاء، شكراً ينبئ عن حقيقة التوحيد التى كشفت له أنه عدم لولا فضل الله عليه، وأنه لا يستحق شيئاً إلا بفضل الله ورحمته، فيكون شكره خالصاً ورضاه حقيقياً، ومنهم من يعتقد سرعة إغاثة الله تعالى، وينتظر فضله فيصبر، ومنهم ومنهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات ١٦٤.

والتسليم لقضاء الله تعالى يتصل بالتسليم بحكم الله، فإن المؤمن إذا عرف نفسه عرف ربه، ومتى عرف ربه جمله بالتسليم له سبحانه وتعالى، ويعرف أن الحكم لله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الأنعام ٥٧، فكذلك جريان الشئون إنما هو بقضاء وقدر من الله تعالى، فالمسلم للحكم يسلم للقضاء، وليس المراد بالتسليم أن يقبل المؤمن الحكم أو يخضع للقضاء بلا معارضة ظاهرة، إنما التسليم إرجاع الأمور كلها إلى الله تعالى، واعتقاد أنها منه سبحانه، وأنه لا يحصل شأن من الشئون إلا بتقديره.

وهنا لطيفة تخفى على كثيرين من أهل التسليم، فإن الإنسان إنما يسلم الحكم لله فيما يتعلق بالمعاملات والعبادات والأخلاق والعقيدة، ولا يسلم فى الحكم بما جاء يخالف صريح الشرع، بل يلزمه أن يعارض فيه ويدفعه ما استطاع، ويكرهه حتى يغلب على أمره، وكذلك فى القضاء بصفته عبداً لله يجب عليه أن يسلم لله جل جلاله، فيما يتعلق بالشئون بعد بذل ما فى وسعه لدفع المضرة عن نفسه وجلب الخير لها، ثم بعد ذلك يسلم له مسارعاً إلى العمل بأمره سبحانه، فإن الواجب علينا أن نسعى لطلب ما لا بد لنا منه كما أمر، ونرضى عنه سبحانه فيما قدر.

وهناك تسليم للجهلاء ليس من الدين فى شئ، فترى الجاهل يعصى الله جل جلاله، فإذا سألته يقول لك: مُقدر علىَّ، وأنا راض بما قدره الله علىَّ، وقد جهل. فإن الله جل جلاله قدر ما يحبه وما يكرهه، والعبد مطالب أن يكره ما يكرهه الله، وأن يحب ما يحبه الله، ومطالب أن ينسب إلى نفسه ما يكرهه الله أدباً مع الله، وأن ينسب إلى الله ما يحبه الله تحقيقاً لكمال التوحيد، ومن قال تلك الكلمة ارتكب إثمين عظيمين: مخالفة لحكم الله تعالى، وسوء الأدب مع الله تعالى، فالأدب مع الله شريعة، والتحقق بالتوحيد بأن الله قدر كل شئ حقيقة، ومن ترك الشريعة كيف يتفضل الله عليه بالحقيقة، والحقيقة روح الشريعة.

ولا يكون التسليم تسلياً حقاً إلا إذا تجرد من العلل، فمن شهد نفسه مسلماً وسكنت نفسه إلى التسليم، لم يكن مسلماً عند العلماء حتى يفنى عن تسليمه، ويرى أن الله تعالى هو الذى مَنَّ عليه بالتسليم، وأنه أسلم به إليه سبحانه، فإن التسليم من أعلى مقامات اليقين ومنازل المقربين، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء ٨٩.

التسليم عند السالكين

رجوع ما تقف دون دركه العقول، بما لا ينكشف للأوهام من الغيب للمدبر القادر، ثم الإذعان لما يخالف ترتيب العقول، ويضاد تجارب النفوس من تداول الدول تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ آل عمران ١٤٠، مع الرضا بما قسم معتقداً أنه بتقدير أزلى، ثم المسارعة ببذل المجهود إلى ما يتجمل به المريد من الأحوال السنية، فإن أسرار الغيب تزاحم العقول مزاحمة، إن استرسل المريد معها حجبته عن مشاهدة حكمة الوجود، وإن لم يخضع لمقتضيات القدر فى سير الدول حجب عن التصديق بالقدر، وإن لم يسارع إلى بذل الجهد لنيل ما به رقيه، وقف دون الغاية التى تسارع إليها نفوس المريدين الطاهرين.

التسليم عند الواصلين

هو تسليم العلم إلى الحال، بمعنى أن العلم سير مخصوص فى الأحكام، فمن حكمه لم يفز بالرضوان الأكبر، لأن علم الأحكام فرقان ما بين المنزلتين من قبول أو رد، فمن حكمه على الحال، إما أن يقف بين المنزلتين أو يرد إلى البعد، والحال داع لبذل قصارى المجهود لينتقل من الأعراف إلى التعريف، ومن التعريف إلى التعرف، ومن التعرف إلى المعروف سبحانه وتعالى، بمجاهدة لا يتحملها إلا أهل الأحوال السنية، الناتجة عن بذل ما فى الوسع للتمسك بالأعمال السنية، وليس المراد بتحكيم الحال على العلم ما يفهمه من لا معرفة لهم، من أن الأحوال خروج عن النمط الأوسط، ومفارقة للصراط المستقيم، فإن هذا ليس هو الحال، وإنما هو استدراج نعوذ بالله منه. إنما الأحوال عندهم أن تنكشف لك الجنة وما فيها فترى مهانة الدنيا وما فيها، وترى أن نفساً تصرفه فى طلب الدنيا يحجبك عن تلك الدار المنجلية لك، وينتج لك خيبة وندامة، فتبخل بأنفاسك وتجود بما سواها فراغاً لقلبك، وأحوال

أصحاب رسول الله ﷺ هى الأحوال العلية، فإنهم بذلوا أوطانهم ففارقوها فراراً بدينهم، وبذلوا أموالهم ثقة بربهم جل جلاله، وبذلوا أنفسهم فرحين راضين عن ربهم، لا لعلة دعت ولا لغرض بعث، إلا وجه الله الكريم، وتلك الأحوال هى موازين أهل الأحوال العلية، وكل من ظن أنه من أهل الأحوال، ولم تكن أحواله مطابقة لأحوالهم فهو مستدرج مخدوع، إذ الحال مقتضى الوقت ولازمه، فإن اقتضى الوقت الهجرة من الوطن هاجر، وإن اقتضى بذل المال بذله، وإن اقتضى أن يقدم نفسه قدمها لله راضياً عنه مرضياً منه، ومن كان حاله يقتضى جمع أموال الناس واستخدامهم، والشهرة بينهم فحاله حال مستدرج.

إذا علمت من إجمالى هذا ما لا بد لك منه من علم الحال، فهذا هو الحال الذى يحكم على العلم، ويجب أن نسلم له العلم يفعل فيه ما يشاء، والرجل ذو الحال العلية ينوع الله به أفكار الخلق إلى منازل القرب والحب، وللحال تأثير روحانى على قلوب المريدين، ربما أخرجهم من المُلك إلى الملكوت فى نفس، بل ومن أنفسهم إلى منفسها سبحانه، ثم يسلم القصد إلى الكشف، وليس بتسليم القصد إلى الكشف أنه عند الكشف لا يكون قصد، و ذلك ما لا يقول به عارف بالله، ولكن المراد من تسليم القصد إلى الكشف أن المريد قد يقصد فى بدايته مقصوداً بقدر علمه، فإذا مَنَّ الله عليه بالمشاهدة جهل فحكم القصد فى الكشف، وقد يكون مقصده الجنة، فتلوح عليه أنوار قدس العزة، فيقف قصده عند الجنة، فيكون شهوده فوق قصده، بل الواجب عليه أن يسلم قصده إلى كشفه، فيكون مقصوده فوق الكشف، فإن الكشف يظهر له ما فوق علمه، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة ٢٨٢، وقال تعالى ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ الأنفال ٢٩، وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ الحديد ٢٨.

ومن يسلم القصد إلى الكشف يدوم رقيه، وينمو القصد عنده، ومن أنساه الكشف القصد، وقد سلم القصد إلى الكشف، ومن فهم أن تسليم القصد إلى الكشف أن الكشف لا يجعل للواصل قصداً، فقد جهل طريقنا، فإن الكشف ينمو به وجد الأرواح المُحرق، وتشتد به الحيرة، ويقوى به الشوق المزعج إلى القصد الأعظم الذى شهدت الأرواح آياته، وواجه السر تجلياته، فالكشف يقوى به المقصد، ثم يسلم الرسم للحقيقة، وقد جهل بعض من لا

علم لهم بطريقنا، فظن أن المراد بالرسم الأحكام الشرعية، وتسليمها للحقيقة ترك العمل بها، وهو الجهل الذى أوقع كثيرين من الأدعياء فى مهاوى الضلالة والكفر نعوذ بالله من الجهل بطريقنا هذا، ومن السير بغير المرشد الكامل وكيف يصل من لا دليل له، أو يفهم من لا مُفقه له!

ومعالم الطريق خفية، والمقصود عظيم كبير متعال، والمرشد الكامل كبريت أحمر، فمن لم يبذل نفائس أنفاسه فى البحث عنه، وكرائم أمواله فى الحصول عليه، ونفسه ليرضيه ويقتدى به فهو طالب لحظه وشهوته ومغرور، ولنا فى اصطلاحنا إشارات تومى إلى حقائق، إن لم يتلقها السالك أو الواصل من المرشد الكامل حقاً، ضل فى سيره ووصوله، فالرسم عندنا هو الواصل بنفسه لأنه فى الحقيقة رسم وصورة، وتسليم الرسم إلى الحقيقة تسليم معانى الإلهية للإلهية، وصفات الربوبية إلى الربوبية، حتى يكون متجملاً بحقيقته، متحلياً بحلل رتبته، فلا يرى له سمعاً ولا بصراً، ولا حولاً ولا قوة ولا علماً ولا ظلاً ولا نفعاً ولا ضراً، وبذلك يكون سلم الرسم للحقيقة، وتخلى عن الدعاوى الباطلة والنسب الكاذبة، مع القيام بما فرض الله سبحانه وسنه رسوله ﷺ، مع المسارعة إلى نوافل البر، بما قام به الأئمة، مسلماً تلك الرسوم إلى الحقيقة، منها وبها ولها بحسب مشهده، وقد ادعى بعض أهل الباطل والضلال، أن قولهم هدم الرسوم، هو ترك العمل بالشريعة، وقولهم تسليم الرسم للحقيقة، أى ترك أحكام الشريعة، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، وليست الأحكام الشرعية رسوماً ولكنها حقيقة، فيجب على الواصل أن يرد الرسوم، وهى أوهامه وخيالاته وظنونه الناتجة من حظوظه وشهواته، إلى الحقيقة التى هى الأحكام الشرعية، وهذا الظن السيئ جعل كثيراً ممن وقفوا عند قشور الشريعة من العلماء أهل الظاهر، يؤولون كلامنا إلى غير ما نريده، بحسب ما وصل إليه مبلغهم من العلم، فأنكروا على الرجال حالهم وكشفهم لما فهموه وما رأوه من أهل الضلال الجهال. ولولا أنى أكره أن أشغل الواصلين بما لا فائدة فيه، لكشفت لهم الحقيقة فى هذا الموضوع، ولكنى أكل نفسى وأكلهم إلى الولى الذى يتولانا بولايته، وأنبه إخوانى إلى نظر هذا الموضوع بفكر وروية وأن يتذوقوا من كلامى ذوقاً لا يخرجهم عن مرادى إلى ما يخالف الشرع الشريف، أسأل الله أن يحفظنى وإخوانى والمؤمنين جميعاً من السير فى طريق الله على غير هدى، وأن يمن علينا جميعاً بسوابغ إنعامه ومزيد فضله، إنه مجيب الدعاء رب العالمين.

التسليم عند أهل التمكين

تسليم ما سوى الحق إلى الحق، فالتسليم عند الواصلين تسليم ما للحق للحق بتبرئة من الحول والقوة، والتسليم عند المتمكنين تسليم تمليك له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ آل عمران ١٢٩، فهم قد شهدوا معانيهم الحقية التى هى عين ما هم عليه فى الحقيقة، ثم كاشفهم الحق بأنه مبدعهم وموجدهم، وأنهم له وليسو لهم، فسلموا ما له ملكاً وأقبلوا عليه عبيداً مملوكين، حتى حصلت المواجهة بين العبد والسيد، فكان أقرب إليهم من أنفسهم، وأولى بهم منها وأحب إليهم منها، ثم بلغوا من القرب مبلغاً تركوا فيه التسليم، لأنه أشهدهم أنه سبحانه أسلمهم به إليه، وليس لهم فى الحقيقة عمل، فخلصوا من وحلة التوحيد، ومن اللبس من خلقٍ جديد، وفازوا بحقيقة التنزيه والتجريد، فهم العبيد حقاً الذين أقامهم الله سبحانه عمالاً له، وأكرمهم بأن جعلهم أولياءه، فهم أولياؤه وهو وليهم.

أسال الله أن يجعلنا منهم، وأن يكرمنا بسرهم، إنه مجيب الدعاء آمين.

مرادى أو مرادك قد يكون ... فسلم لا تغيرك الشئون
وثق بى واعتقد واعلم بأنى ... شفوق بالذى يرجو حنون
ولا تغتر يا عبدى لقربى ... فما هونته عبدى يهون
قضاء نافذاً والخير فيه ... وكم عند الرضا قرت عيون
فمن رام الوصول إلى جنابى ... أصفيه وفى هذا فتون
وكم من نقمة هى باب قربى ... وكم هول به فتحت حصون
إذا لم أمتحن عبدى يقيناً ... فلا وصل يلذ ولا شجون
تريد بأن ترى حسناً وترقى ... بلا حرب شديد لا يكون
فمن رام الوصال إلى جنابى ... أصفيه وفى هذا فتون
فجاهد كل غير لى وبادر ... بإخلاص فذا الحصن الحصين
تمسك إن أردت القرب منى ... بسُنة أحمد فهو الأمين

فى القلب أشرق كوكب التسليم فتنورت نفسى سنا معلومى
وسمعت نغمات الوجود تشير لى عن سرها بالكشف لا برسومى
عاينت فى وجهى جمالاً مشرقاً بالذوق يشهد لا بحد علوم
لما تجلى لى بأفق بيانه فى النشأة الأولى فأحيا رميمى
وبه وجدت ومن ﴿أَلَسْتُ﴾ شهادتى بجماله الأعلى بلا تعليم
كلفت بالعهد القديم ولاح لى وجه سما عن حده لفهوم

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

مقام التهذيب

سبق لى فى كتاب "معارج المقربين" تعريف النفس وطرق تزكيتها، وفى كتاب "النور المبين" ما فى النفس من الحكمة، وتعريف تأثيرات النفوس على بعضها بياناً ينتفع به السالك المريد لله جل جلاله، ولما كانت هذه الرسالة خاصة بعلوم الصوفية وأحوالهم ومنازلهم فى سيرهم إلى الله جل جلاله، أحببت أن أبين التهذيب عندهم وهو منزلة من منازل السير.

التهذيب عند السالكين

وهو تهذيب الخدمة، بأن تكون خدمة السالك مطابقة للعلم، مجردة عن الجهالة، لا تكون عن عادة ولا تقف عند همة، فإن كانت الخدمة قد خالطتها الجهالة ومازجتها العادة ووقفت عندها الهمة، كان السالك كحمار الرحى، لا ينتقل من منزله الذى هو فيه إلى غيره، هذا هو السبب الذى جعل السالكين لا تنبلج لهم أنوار الآيات، ولا تلوح عليهم أحوال المناجاة، ولا يتذوقون للإيمان حلاوة ولا للتقوى لذة، وأنهم كالآلة المحركة بغيرها، وبذلك يكون السالك مردوداً عليه عمله لجهله بصحة العمل، مشركاً لنسبة عمله لنفسه، واقفاً لتقليده فى العمل غيره.

التهذيب عند الواصلين

وهو تهذيب الحال، بتخلية الهمة فى الحال عن أن يتجمل به تقليداً لصاحبه أو بعد العلم بأسرار أهل الأحوال، وألا ينقاد لهم برسوم، فإن كان عن علم بالحال فتكلفه، أو خضوع لصاحب الحال فليس بحال صادق، إذ الحال بوادِه من الحق تصول على أهله قهراً، فيظهر منهم ما بينته لك فى الحال قبل ذلك، ولا يلتفت صاحب الحال إلى حظ عاجل أو آجل، فإن التفت صاحب الحال إلى الحظ كان حاله معللاً، ومتى كان الحال معللاً أدى إلى ضلال صاحبه والإضلال به، إذ الأحوال عن رسول الله ﷺ ورثت، وبالسير على صراطه المستقيم نيلت، وبالقهر على التحلى به ظهرت، فقد يلقى بنفسه من شاهق جبل، وقد يلقى بنفسه إلى النار، وقد يعلو على السبع، وقد يُلقى بنفسه فى اليم، وقد يترك الطعام والشراب الأيام الكثيرة، وقد ينفتق نور رتق لسانه، فيبين من أسرار الحكمة وغوامضها بلا قصد ما لا يمكن أن يبين إلا بروح الإلهام، فكيف يكون هذا الحال مشوباً بحظ!

فيجب على الواصل أن يجرد حاله من تلك المعانى الثلاث، فإن ألم بنفسه لمة من تلك المعانى، خاف من الله أن يتجمل لخلقه بما ليس له حقيقة فى قلبه، قال ﷺ: (من جمل باطنه لله جمل الله باطنه وعلانيته، ومن جمل علانيته للخلق قبح الله باطنه وعلانيته). فمن تجمل للخلق كشف الله ستره عنه وأذله أمام عباده، وإنما الضلال يأتى من الضُلال، يجملون ظاهرهم لعباد الله المسلمين المشتاقين إلى الحكمة، فتميل إليهم نفوسهم فيضلونهم عن الحق، قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يونس ٣٢.

* * *

التهذيب عند أهل التمكين

وهو تهذيب القصد، والإشارة فيه أولى من العبارة، لأن مشاهدهم فى التهذيب فوق أن يصرح بها، والأمر ثلاثة: قاصد وقصد ومقصود.

ولما كانت منزلة التهذيب تتعلق بالقصد دون القاصد والمقصود، وإن كان المقصود ملحوظاً فيها بالنسبة، لأن القصد به ينال المقصود، إذا كان على الوجه المناسب، والتهذيب

لابد أن يراعى فى هذا المقام بوجه أكمل، لأن مقام التمكين يبسط فيه بساط المؤانسة، وتجلى فيه أنوار المواجهة، وتلوح فيه أسرار المنازلة، والأدب فيه أولى بأن يتبع، وهفوة فيه سقوط من عالين، أعوذ بالله من سوء الأدب فى مقام البسط فى نزل التهذيب، فالمتمكن يصفى القصد من أن يشوبه شائبة إكراه، لأن الشعور بالإكراه فى مقام القصد فى التمكين برهان على التفات المقصود عن القاصد.

والالتفاتات فى المقامات العلية لا تتدارك. قال ﷺ: (شيبتنى هود وأخواتها)، ومراده ﷺ بهذا والله أعلم بمراده، أن الله تعالى ذكر البعد فى مقام البعد، فقال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هود ٩٥، وذكر البعد فى مقام البعد يشيب الحبيب القريب فى مقام القرب، لأنه يعلم أن من صفة حبيبه أن يبعد، فكان ذكر البعد فى مقام البعد موجب لشيب السيد الشفيع الحبيب القريب، الذى لأجله أكرم الله الخلق أجمعين، من الملائكة والإنس والجن، وهى أكمل إشارة لأهل مقام التمكين، يحفظهم الله بها من الأمن فى مقام البسط.

فإذا صفى القصد من شوب الإكراه، قام بجهاد أكبر، مستعيناً بالله تعالى أن يحفظ القصد من أن يعتوره فتور، فإن الفتور فى منزلة التهذيب فى مقام القصد، لأهل التهذيب دليل على حرمان الإمداد الروحانى، والتفات الوجه الجميل – نعوذ بالله – والمطلوب للقرب تدوم بهجته وتعلو همته وتسمو عزيمته، وأهل العزائم من المرادين للحضرة وصفهم الله تعالى فقال جل جلاله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الذاريات ١٧-٢٢.

وقد جعل الله تعالى الليل لباساً، فلبسوا فيه حُلل الهمة وفارقوا فيه مضاجعهم، وخالفوا فيه هجوعهم، يقظة قلوبهم، ولذتهم بالقيام بين يدى حبيبهم، وما سقاهم من طهوره الصافى فأسكرهم به، غيبهم عن حظوظهم، فهم مع الله، والله معهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ النحل ١٢٩، وقال ﷺ: (كن مع الله تر الله معك). وهل لمن رأى الله – تعالى – معه غاية سواه أو بغية إلا رضاه أو لذة إلا فى ذكره! أو حظ إلا فى المسارعة للقيام بأمره! أحبهم جل جلاله فأحبوه، وواجههم بوجهه الجميل ففروا منهم إليه، فلم يسر بهم وطر إلا إليه، ولا تلم بهم همة إلا له، صغرت والله فى قلوبهم الدنيا والآخرة، عندما وقع

بهم العلم على عين اليقين، وكبرت نفوسهم عليهم أن تذل لغيره، وهو العلى العزيز العظيم، وهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون ٨، كيف يعتور هممهم العلية فتور وقد أمدهم بروح منه! أو يشوب قصدهم إكراه وقد تولاهم جل جلاله! قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، فإذا حفظ الله القصد من أن يمازجه الفتور، ورقى المتمكن من تلك المنزلة، نازعه العلم فقام مجاهداً الجهاد الأكبر، حتى يتخلى قصده من منازعات العلم.

وقد سبق لى بيان أن العلم له منازعات، ربما أوقفت المتمكن فى سيره، لما ينكشف له بالعلم فى المقامات من أنوار الأسماء والصفات، الحاجبة للآيات والكائنات، قد بينها الله فى صريح الكتاب، فتحصل المنازعة بين العلم والقصد، فإن القصد كما قررت لك، لابد وأن يكون بين قاصد ومقصود، والعلم إذا وقع بالمتمكن على عين اليقين، أو حقه سترت أنوار الأسماء ما سوى الحق، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصلت ٥٣.

فإذا أسبلت تلك الستارة بصولة الحق على الروح الملكية، حصلت المنازعة الكبرى بين العلم والقصد، فإذا حصلت المجاهدة الكبرى حتى يظهر القصد من منازعات العلم، أمده الله بروح منه، فشهد الحضرتين بالحضرتين، وتميز فى عين سره المكانتين، فكان عبد عبودة لذات الله، وصفا له نزله وطاب له وقته، وخلا حاله وصح مقامه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران ١٠١، والله تعالى أسأل أن يمدنا بروح منه، وأن يهب لنا مشاهد المقربين وموارد المحبوبين ومنازل المرادين لحضرته، الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الزخوف ٦٨.

وقد بينت لك فى تراجم الرجال نبذاً من أنواع التهذيب، لتعلم أنها سُنة أئمة الطرق الماضية، ولا أحظر عليك أيها المسترشد أن تجاهد نفسك بنوع من التهذيب، لا تتعدى بها الحد الوسط، ما دمت لم تجد المرشد الكامل، الجامع بين روح الشريعة وظاهرها، والعالم بطرق تزكية النفوس وتهذيبها، فتأدب له واعرض عليه أحوالك جمعيها، وأمراضك خفيها وعلنها، فإنه هو الطبيب الرفيق العالم بالسبل التى توصلك إلى الحق جل جلاله.

هذب النفس إذا رمت الوصول   غير هذا عندنا غير الفضول
حصل العلم بعزم صادق   لا تكن بالعلم كسلاناً ملول
علم النفسى بتوحيد العلى   من بيان الآى عن فرد فضول
حصل الأحكام بالقدر الذى   يقتضيه الوقت لا قال يقول
حسن النيات وانهج نهج ما   صح بالإسناد تحظى بالقبول
صاحبن أهل التقى والزمهمو   واتبعن نور الهدى فعل الرسول
وادخلن حصن الشريعة واهجرن   كل مفتون ومغرور جهول
واصطف الرؤف الرحيم اسع إلى   من يزكى النفس عنه لا تحول
سلمن للمرشد الفرد الذى   يحفظ الآداب حفظاً للأصول
رتل القرآن وافقه آيه   وافقهن سر الإشارة والفضول
آثر الآخرى على الدنيا عسى   يقبل الله فتحظى بالوصول
وازهدن فيما يزول مسارعاً   بالذى يبقى بأحوال الفحول
أخلصن لله قلباً وقالباً   واسألنه الفضل منه والقبول
بر أصليك الكريمين ارحمن   كل فرع منهما عند المحول

الباب الرابع

مقام اليقظة

قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ النساء ١٣٥، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ سبأ ٤٦، وقال سيدنا على رضي الله عنه: (الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا).

اليقظة: قومة القلب من نومة الغفلة عن النشأة الأولى، ومن رقدة الجهالة بالنشأة الآخرة، وتدعو إليها أمور:

أولها: ما يجعله الله للعبد من نور الفكرة وضوء العبرة.

ثانيها: الهمة الباعثة على طلب بيان سبل الله تعالى.

ثالثها: وجود الدال على الله تعالى بالعلم والحال والعمل، وهى أساس اليقظة، ومتى توفرت تلك الأمور انجذب القلب بكليته إلى جانب الحق، متجافياً عن جانب الغرور، وحصل له روع شديد مشوب بحزن، أما الحزن فلما فرط فيه، وأما الروع فالخوف من أن يفوته قصده، فيسارع إلى طلب الرفيق فى الطريق، وطلب المرشد المُذكر للنفس بما كانت عليه من البهجة فى فردوس الله تعالى الأعلى، وللحس ما كان فيه من المسرات، وللنفس ما كان فيها من محبة الله، والبهجة بسماع الحكمة الروحانية، حتى أُهبط إلى الأرض فنسى أو تناسى، فإذا ظفر بهذا المُذكر تذكر فذكر، فإذا ذكر تصور، فإذا تصور ما كان عليه اشتاق إليه وسارع إلى نيله، وبذل لذلك ما يفنى حفظاً على نيل ما يبقى.

اليقظة عند السالكين

اليقظة عند السالكين هى رعاية القلب نعم الله المتوالية عليه وفيه وحوله، مما عجز العالمون جميعاً عن حصرها، حتى تتضح له حقيقته بدءاً وختماً، وما أعده الله له بها لا بقاء إلا به، فإذا تحقق بهذا تيقن التقصير عن استيفاء حقها، ففرغ قلبه إلى تحصيل علم المنة بها

عليه، فإذا تبين له وجه المنة عليه بها من الله تعالى، تحقق فضل الله العظيم عليه، ولديها تظهر له معالم الجناية منه وظلمه لنفسه، ويتمثل الخطر المحيط به لتمتعه بنعم الله ظاهراً وباطناً، وتقصيره فى الشكر، أو استعمالها فى غير ما وضع الله لها، وفى هذا الحال المزعج يسارع بعزيمته ليتدارك ما فاته، واستبدال ذلك بمحاب الله ومراضيه بقدر استطاعته، حتى يتفضل الله عليه بأن يخلصه من رق الجناية، ويهب له النجاة بتمحيصها، وهى اليقظة عند السالكين، ومتى ذاق السالك هذا الشراب صحت بدايته، ومتى أشرقت عليه أنوار مطالعة الجناية فهو الواصل.

اليقظة عند الواصلين

واليقظة عند الواصلين جولة الفكر فى عظيم الفضل وجميل النعم، وبتوالى الغفلة يشتد الخوف من الجناية ويعظم، حتى ينجذب السالك الواصل بكليته إلى التخلى عما يغضب الله، ويولى وجهته بكليته إلى محاب الله ومراضيه، ليمنحه الله التخلية فى حالة التجريد، مشمراً لتدارك ما فاته من المسارعة إلى مغفرة من ربه، وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمُتقين، ليمن الله تعالى عليه فينجيه من الجناية، ويفك رقبته من رِقها، ويتفضل عليه بالعفو عنها بعد تمحيصها، ويكون ذلك باعثاً على القبول من الله تعالى إذا صدق حال عزمه وقصده، فعظم الحق سبحانه بعد معرفة نفسه، وتصديق وعيد الله تعالى، وسهل عليه خرق العادات، حتى يكون عابداً لا معتاداً، فإن العادة قد تلتبس عليه بالعبادة، وكل من صلى غير ملاحظ بقلبه حكمة الأعمال، وعظمة من وقف بين يديه، فصلاته عادة لا عبادة، وهكذا جميع الأعمال، ولا تكتب له عبادة إلا إذا حصلت له رعاية الحق سبحانه وتعالى فيها، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وكم من قائم وساهر ليس له من قيامه وسهره إلا التعب والسهر، وإنما تكون العبادة حقة إذا أشرقت على القلب منها أنوار العرفان، وسطعت عليه صولة الخشية من الحنان المنان.

اليقظة عند أهل التمكين

اليقظة انتباه القلب بعد العلم اليقينى بالثواب والعقاب، وبالزيادة من العلم والعمل، رغبة فى المسارعة إلى الخير، وللمحافظة على الأيام، خوفاً من تضييعها فيما يوبق، أو خلوها مما يرفع القدر عند الله تعالى شحاً لأوقاته ليتدارك ما فاته، ويعمر ما بقى من عمره بما ينجيه من العذاب.

واليقظة سلم الفوز وباب الإقبال، وهى أساس السالكين، ومن لم يفتتح سلوكه بها فسيره على حرف، ومتى صحت اليقظة صح سلوك السالك، وداوم إقباله على الله تعالى، ومن نزل فى منازل السلوك من غير اليقظة نام فى سيره، أو التفت عن المنهج وما فترت همة سالك فى الله تعالى إلا لأنه افتتح سيره من غير اليقظة، فإن اليقظة إذا حلت فى القلب لم تقف همته دون قصده، ولكل سالك فى نزل من منازل السلوك قصد، يجب أن يفرده دون غيره بالإرادة، ومن شاب قصده شوب الأغيار، استعلى عن القصد، فنسيه السالك أو تناساه، وصار معتاداً لا عابداً، والله سبحانه وتعالى أسال أن يبقظ قلوبنا من نومة الغفلة، ورقدة الجهالة، وأن يمنحنا الهمة العلية، والفضل العظيم إقبالاً عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه آمين.

* * *

الباب الخامس

الرعايـة

قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ الحديد ٢٧، وقال ﷺ: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن).

الرعاية نظر بعين القلب إلى مقلبه، ينتج منها ملاحظة الأعمال والأحوال والأوقات، ملاحظة تجعل السالك يحافظ على الفرض والنفل، لشهود أنه ما قام به بالنسبة لمن قام له

سبحانه، ثم يقرب من قرباته لشهود أنه ما قام به إلا بمعونة من الله، وتوفيق وهداية ومراقبة أن تلك القربات هل قبلت أو ردت؟ والرعاية عندهم فى الأعمال والأحوال والأوقات.

الرعاية عند السالكين

رعاية الأعمال: حفظ من الله للعبد بعنايته – تعالى– وتوفيقه، وغاية الأعمال احتقارها بعد القيام بها، إجلالاً لمن قام له بها سبحانه فيكون بذلك أحياها ونماها، لأن الله تعالى يقبلها ويضاعفها، ثم تأديتها على الوجه الأكمل، غير ناظر إليها، وعملها على طبق العلم والأثر بالإخلاص، لا متزيناً بها، فإنه بذلك يكون كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ النساء ٦٩، ومن تشبه بقوم اتصل بهم.

الرعاية عند الواصلين

رعاية الأحوال: أن تشرق أنوار الحق فى أفق قلب العبد، فيرى النقائص فى أعماله، حتى يشهد الاجتهاد رياء، لأن أحداً لا يقدر قدر الله تعالى، ولا يقدر قدر الإخلاص لذاته، ولا يقدر قدر القيام بأحكامة، ويشهد ما يطمئن إليه من اليقين تشيعاً، ويعتقد أن ما يعروه من الأحوال القاهرة دعوى لا حقيقة لها، حتى يكون قاهراً لنفسه، محتقراً كل ما يورده على ربه، متحققاً بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ النجم ٣١-٣٢، وليس المراد بكثرة العبادة والتجمل بالحال نسيان يوم الحساب، ونسيان القوى المتعال، بل المراد من ذلك كله القرب منه جل جلاله، وكلما قرب العبد من الحق، كلما شهد عزيزاً وعظيماً وجليلاً وقهاراً ومنتقماً وقوياً وكبيراً ومتعالياً، ومن كانت عباداته وأحواله منتظمة فى عين نفسه، وتجعله يحتقر غيره، فقد بعد عن الله بعمله وحاله.

❊ ❊ ❊

الرعاية عند أهل التمكين

رعاية الأوقات: بمراعاة مقتضى الوقت فى كل حركة وسكنة، وهمة ولمة، ونفس ولحظة، حتى تكون الأنفاس عامرة بالشهود والمراقبة، مع ملاحظة كمال الأدب فى الوجود والمحاضرة والغيبة، عما كان منك له سبحانه والشكر لما كان منه سبحانه لك حالة الصفا، مع المحافظة على الرسوم، والفناء عن شهود الصفو إقبالاً على من منه وبه سبحانه وتعالى الصفا.

ومعنى قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك. أن لكل وقت حكماً لازماً، وشكراً واجباً، ونوافل مرغباً فيها، فمن عمر الوقت بمقتضاه قطع الوقت الذى هو بينه وبين ربه، فاتصل بالحق اتصالاً بعمله بأوامره واتباعه لوصاياه، واقتدائه بأئمة الهدى.

رعاية أهل القرب فى القرب إظهار ... مقام به شمس الحقيقة إسفار
يراعون غيب الغيب فى حظوة الصفا ... رعاية رهبوت به الجهر إضمار
فيدعون رغباً ورهبة فى شهودهم ... ولا بين والمشهود فى القرب أنوار
وفى حال محو البين لا قرب عندها ... ولكن رسم العبد يخفه ستار
يظللنى بجماله فى تقربى ... فأخفى ويظهر قادر غفار
أكون أنا المقدور أشهد قادراً ... ومن صور القدر العلى فكفار
تلوح لى الأسماء فى سدرتى التى ... تحيط بها فى حالة الحجب أسوار
وسورى رمز المثنوية حاجب ... إذا فك هذا الرمز تظهر أسرار
وقد كنت فى تيه الرسوم كأننى ... خفى جلى والمشاهد أطوار
أرانى بعين الحسن تخفى حقيقتى ... وأشهدنى ظلاً ونوراً ولا نار
لأعلم قدرى فى معالم رتبتى ... وأعلم عجزى باليقين فأحتار
وما بين عين بصيرتى وجوارحى ... خلاف تجاوزه مراد ومختار
إذا أنزل الله القريب سكينة ... بها جبر كسرى والمقدر جبار
فتكسر صولته نعم قلب آله ... يكون نعم عندى ولى وستار

مقام المراقبة

قال الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ الدخان ٥٩، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الحديد ٤.

وسئل ﷺ عن الإحسان فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

معلوم أن المراعاة تورث المراقبة، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى. المراقبة هى مراعاة السر لملاحظة الحق سبحانه مع كل خطوة. علامة المراقبة إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر الله تعالى.

المراقبة عند السالكين

استحضار معانى صفات الحق حال السلوك بما فهم من العلم النافع، استحضاراً يجعل لطائف القلب محل استجلاء تلك الأنوار، حتى تقوى المراقبة بموجب التعظيم المدهش للسالك، والجذبة الحاملة له على التخلى عن سوى الحق سبحانه وتعالى عند شروق وميض الجلال، والبهجة حال الإقبال بشميم عبير الجمال، فيكون السالك فى المراقبة بين ذهول من العظمة، وإقبال من الجذبة وبهجة بالأُنس بالاستجلاء.

المراقبة عند الواصلين

إشراق نور العلم لأن الله يراك وإن لم تكن تراه، فتقوى دواعى المراقبة الموجبة للتجمل بحلل العبودة للحق جل جلاله، وينتج عنها بواده ترد من حضرة القدس، تجعل المراقب يتحلى ببعض أحوال مقام الرضا، فيتخلى عن المعارضة فى الشئون، وعن الاعتراض فى المقدور، والمعارضة والاعتراض عندهم شهود استحقاق العبد حقاً على الله تعالى، وهذا من جهل السالك بنفسه، وليس منهما التملق والتبتل والابتهال والتضرع والدعاء لكشف الكروب، وإزالة الخطوب، وجلب الخيرات، ودفع البليات، فإن ذلك من معرفة السالك

بنفسه، لأنه إذا تحقق بعجزه عن دفع ما يضره، وجلب ما ينفعه، كان من أهل مشهد لا حول ولا قوة إلا بالله. وأهل هذا المشهد الدعاء عندهم هو مخ العبادة لأنهم يسألون الله تعالى لا لأن الله يجهل حالهم سبحانه، ولا لأنه بعيد لا ينبه إلا بالنداء، بل يسألونه سبحانه ليتجملوا أمامه جل جلاله بما يحبه سبحانه منهم، من الذل والخنوع والخشوع والرجاء والرغبة، واعتقاد أنه سبحانه وتعالى المنفرد بالإيجاد والإمداد، والإعطاء والمنع، فيكونون فى هذا الحال فى مواجهة رب كريم، معط منعم متفضل، وبذلك يحصل لهم القرب المعنوى، الذى به يستجلى لسرهم سر المعية من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ النحل ,١٢٨

ولذلك فإنهم يتكلمون معه، كما يتكلم المتكلم مع القريب منه الجالس معه. وفى مقام الدعاء قد تتجلى أنوار ﴿كُن﴾ فتكون الإجابة أقرب للداعى من ارتداد طرفه، كما حصل لآصف بن برخيا، عندما أحضر صرح بلقيس. ولا يكون ذلك للداعى إلا إذا كان عنده علم من الكتاب، يجعله يتجمل بآداب العبد أمام الرب جل جلاله، ولديها تحصل مواجهة معانى العبد بمعانى حضرة الرب، وتكون الأسماء المواجهة للعبد، المقتضية إغاثته، وتيسير حاجته، أقرب إلى العبد منه، حتى يكون سر اتحاد من مضنون علم ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الزمر ٣٤.

فإن العبد فى حال تجمله بحقيقة العبدية، فتكون مشيئته بسر ﴿كُن﴾ بحقيقة الاتحاد الكشفى فى مقام رفع الحجاب، عند التفضل عليه بالعندية. وهناك سر آخر من مضنون الاستجابة، وهو أن العبد عند تجمله بمعانيه، وإشراق أنوار الربوبية عليه، ينكسر قلبه فيكون الله عنده، ومتى كان الله جل جلاله عنده، كانت ﴿كُن﴾ أيسر ما يعطيه الله جل جلاله، قال ﷺ: يقول الله تعالى: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى). وهذا هو سر الله الأعظم، الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى. ولما كان الوهاب الكريم لا تقف مواهبه على أهل الخصوصية من كُمل الرسل، فإنه كما وهب لرسله ما تعلمه من فلق البحر، وإحياء الموتى ونبع الماء، وشق القمر، وقد وهب للصديقين من أتباعهم ما نعلمه من إحضار صرح بلقيس، وإيجاد الفاكهة فى غير أوانها للصديقة مريم.

وكم أكرم أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم إلى يوم القيامة بما لا يمكن أن يتصوره العقل، فضلاً من الله، يتفضل به على أحبابه إكراماً لرسول الله ﷺ ولا تعجب يا أخى فإن

الله جل جلاله أخبر فى القرآن أنه يستجيب لعباده الصالحين، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الشورى ٢٦، أى ويستجيب الله للذين آمنوا.

المراقبة عند أهل التمكين

تزكية النفس من موجب التعرض لنيل غير فضل الله تعالى ورضوانه، وذوق أسرار التوحيد ذوقاً يجعله دائم الرهبة من سر السابقية أزلاً، حتى تكون أحواله محصنة بحصون الهيبة، فلا يأمن المكر، وشهود عجائب الحكمة، وغرائب القدرة من شأن الأبد شهوداً يجعل صاحبه لا يغيب بالأبد عن الأزل، ولا يحصل له لبس من خلق جديد، ثم يغيب عن المراقبة بالرقيب، ليكون من المخلصين فى معاملة الحبيب.

ولما كان لابد لأهل الطريق فى بداياتهم من تنبيههم ليقظة القلب بالمراقبة، كان لابد فى البداية من استحضار المرشد، استحضاراً يجعل صورته ترسم على لوح الخيال، بالمعانى الفاضلة، التى جمله الله بها، من الاستقامة، والمسارعة إلى تأدية الواجب والنفل، وجميل الأخلاق والتواضع والزهد، حتى تكون تلك الصورة مواجهة لقلب المريد السالك.

وهى فى الحقيقة محبوبة له فى بدايته، حباً يجعله يسارع إلى التشبه به فى جميع شئونه، فتنمو فى قلبه أحوال المراقبة، وقد تقوى مراقبة المريد للمرشد، حتى تنتقش صورته على لوحة الخيال نقشاً، فلا يغمض عينيه إلا ويراه، ومن بلغ من المريدين هذا المبلغ، دل ذلك على أنه مؤهل للرقى على معارج أهل الشهود، ومن المريدين المخلصين من يشهد الأستاذ وهو فى اليقظة بعينى رأسه عند المقتضيات الداعية، لأن صورته منتقشة على الخيال، ولطائف قلبه مراقبة، فعند تقلب قلبه فيما يحبه الله سبحانه أو يكرهه الله سبحانه تنتبه لطائف القلب، فتشهد البصيرة صورة الإمام المرشد فى لوحة الخيال، فتنفذ أشعتها إلى البصر، فتحجب المشهود عنه، ويرى كأنه مع الأستاذ فى مكان واحد، ومأخذهم فى ذلك، تفسير بعض أهل العلم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف ٢٤، أن سيدنا يعقوب دفعه بيده. وما ورد عن بعض

أئمة الطريق، أنه وقف أمام الروضة الشريفة، وقهره حال المحبة والوجد، حتى تجرد عن حسه، فشرفه رسول الله ﷺ بيده الشريفة فقبلها، والأمر روحانى، ولكن حجبت أنوار الروح الحواس، وشهد فى حضرة إطلاق.

وإن ثبت أن الحاضرين رأوا ذلك حساً، فإن حال المرشد قهرهم، حتى غابوا عن حواسهم، وحضرة الإطلاق ليست حظراً على أحد شهد أحوال المرشد الكامل، فإن السباع والطيور كم قهرت بأحوال الرجال، فإذا كانت الحيوانات تقهرها أحوال الرجال، فكيف بالأناسى؟! فمراقبة المريد فى البداية تنمو بها قوة اللطائف للمراقبة، فينتقل من مراقبة الأستاذ إلى مراقبة حضرة رسول الله ﷺ، والأستاذ المرشد الكامل هو الختم، أو الصورة المحمدية الكاملة للمريد، والأمن الروحانى للسالك، فإذا تحقق بمراقبته، ورقاه الله إلى مراقبة حضرة رسول الله ﷺ أمكنه أن يتخيله ببعض معانيه ومبانيه صلوات الله وسلامه عليه. لأن السالك لا يقوى على استحضار المعانى والمبانى المحمدية فى حال من الأحوال، بل ولا يقوى على استحضار ختم العصر معنى ومبنى، فكيف يقوى على استحضار تلك المعانى المحمدية العلية؟ فإذا استحضر بعض تلك المعانى سارع إلى كمال الاتباع، وحفظه الله من الابتداع، وترقى إلى أن يكون من أهل معية رسول الله ﷺ بجمال أوصافهم التى ذكرها الله فى آخر الفتح، وإذا قويت روحانيته حتى شرفه الله باستحضار تلك المعانى المحمدية، وأعانه سبحانه وتعالى بهدايته وتوفيقه للاتباع لحضرته، وجمله بأوصاف أهل معيته عملاً وحالاً وخلقاً مَنَّ عليه بوميض أنوار المواجهة، وحصلت له مراقبة الله تعالى فى ظاهره وباطنه، واتصلت روحانيته بالروحانيات العاليات، وسبحت روحه فى الملكوت الأعلى، واقتبس فى مقام فنائه فى المرشد الكامل من مشكاة الأنوار المحمدية، حتى تنبعث فى قلبه أنوار الإلهام، وأسرار القرآن، ويكون لسان بيان، وحال تمكين وإماماً للمتقين. وسأبين بياناً مُفصلاً فى مراقبة أهل طريقنا، عند ذكر خصوصيات هذا الطريق فى باب خاص.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينا صراطه المستقيم وأن يجملنا بجمال أهل معية حبيبه ومصطفاه ﷺ، وأن يعيذنا بوجهه الجميل من الجلال كله، ومن المعصية وأسبابها إنه مجيب الدعاء.

راقب الله إن خلوت رقيباً ... تب إليه تراه رباً مجيبا
من يرى خلوة يمت فى هوان ... يفعل الشر والخنا والعيوبا
راقب الله إن خلوت تحصن ... بالقرآن المجيد تحيا منيبا
كيف أخلو والله جل عليم ... بخفايا النفوس جل رقيبا
ويل نفسى جهلت آية ربى ... قد تلاها الأفراد تنبى الأديبا
آى ﴿نَجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ فاقرأنها ... لا تقل خلوة تراك مصيبا
تب إلى الله نادماً من شهود ... خلوة فى الوجود تحيا مهيبا
واشهدنه فى خلوة فى اجتماع ... تعط خير الدنيا تنال الغيوبا

❊ ❊ ❊

الباب السابع

مقام الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ الزمر٣، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ البينة ٥.

وقد ورد خبر مسند أن النبى ﷺ أخبر عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى أنه قال: (الإخلاص سر من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى).

وقال الإمام القشيرى : (الإخلاص إفراد الحق سبحانه فى الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شئ آخر، من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعانى سوى التقرب به إلى الله تعالى).

وقال الأستاذ أبو على الدقاق: (الإخلاص: التوقى عن ملاحظة الخلق، والصدق: التنقى من مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له).

وقال أبو يعقوب السوسى: (شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص، واحتاج إخلاصهم إلى إخلاص).

وقال أبو عثمان المغربى: (الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص

العوام، وأما إخلاص الخواص فهو ما يجرى عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية، ولا بها اعتداد، وذلك إخلاص الخواص).

وقال أبو بكر الدقاق: (نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله تعالى أن يخلص إخلاصه، أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلَصاً لا مخلِصاً).

وقد ألمعت فى كتاب "معارج المقربين" إلى الإخلاص بمثل يذوق منها أهل الذوق مقدار ما يجب عليهم لله جل جلاله، استحسنت أن أفصل الموضوع تفصيلاً يشفى غليل السالك المخلص فى طلب الحق جل جلاله.

الإخلاص عند السالكين

تجريد العمل من رؤيته، لأن من رأى عمله لم يخلص فيه، لأنه لو أخلص فيه لرفعه الله إليه، ولو رفعه إليه لن يراه قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر ١٠، فمن عمل عملاً ورآه، دل ذلك على عدم قبول الله له، ثم يتخلص من طلب الجزاء على العمل، فإن السالك إذا عمل عملاً لينال به جزاء، كان مشركاً شركاً خفياً، والمشرك لا يكون مخلصاً، وهل طلب الله منك جزاء على ما تفضل به عليك حتى تطلب منه عوضاً بعملك أيها السالك؟ ومن طلب من الله عوضاً بعمله كان أجير سوء، ثم يتخلى عن الرضا بعمله، لأنه إنما يعمل ليرضى ربه، لا ليرضى نفسه عن عمله، ومن عمل متلذذاً بالعمل، راضياً به واقفاً عنده عمل لغير الله.

هذه المعانى من دسائس النفس ورعوناتها، وكل سالك لم يجاهد نفسه أشد المجاهدة، ليتخلص من تلك الدسائس لم يكن سالكاً على الطريق المستقيم، ولكنه سالك فى حظ نفسه قال الله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ غافر ١٤، فكل أعمال السالك إذا تجردت من الإخلاص، ردت عليه وكانت عقوبة له يوم القيامة.

الإخلاص عند الواصلين

التحقق بالعجز عن القيام بما يجب، مع بذل قصارى الجهد فى العمل الصالح، والخوف من رؤية العمل خشية من الوقوع فى الشرك الخفى، ثم شهود المنة من الله على العبد العامل،

والتحقق بأن العمل بنور التوفيق، والعناية والهداية الإلهية، فيكون وهو فى العمل مشاهداً لمنة الله العظمى عليه بالعمل، ملاحظاً أنه عاجز عن شكر الله على ما مَنَّ به عليه من التوفيق بالعمل، لأن العمل أعظم نعمة من الله يجود بها على العبد الواصل، فيشهد العمل فضلاً من الله عظيماً عليه، حيث وفقه وأعانه، وهداه وأقامه مقام العاملين المخلصين لذاته الأحدية، وأى فضل أعظم من هذا الفضل فى تلك الدار الدنيا؟

تنبيه

قد تشرق أنوار التوحيد على المخلص فى سلوكه، فيرى أنه عند قيامه للعمل لا يمكنه الإخلاص لله كما يجب، ويتحقق أن العمل ربما أوقعه فى الشرك لتشبه العمل إلى نفسه، فتنزعج نفسه الطيبة، ويخشى على نفسه دخول آفات الشرك عليه، فتعلوه الحيرة، لأنه يصير بين أن يعمل عاجزاً عن الإخلاص الكامل، فيكون مشركاً لنسبة العمل لنفسه، أو يترك العمل خوفاً من الشرك الخفى، فيكون مخالفاً للحكم الصريح الجلى، وهذه الحيرة هى عقبة الواصلين، ومتى اقتحمها فك رقبته من قيود أسفل سافلين، لأن مشاهد التوحيد تجعلهم لا يشهدون إلا الواحد الفاعل المختار، ومشاهد التقييد تجعلهم يشهدون أنهم مكلفون أن يقوموا لله بما أوجب، ولم يفتق رتق الكائنات أمامهم، حتى يتحققوا بأنوار مشاهد التوحيد من عين اليقين فتعتورهم أحوال تذهل العقول وتحير الألباب، وتكون لهم إشارات ترمى إلى فناء كل ما سوى الحق، وإلى قيام كل شئ بقيوميته سبحانه ولم تعتورهم هذه الأحوال، إلا لأنهم لم يسلكوا الطريق على يد المرشد الكامل، لأنه سكينة للقلوب وطمأنينة لها، وإنما ينتشل الواصل من تلك الوحلة، بأن يتحقق أن تلك المشاهد مشاهد روحانية، لا حكم لها على مقتضى البشرية، وأن للجسم أعمالاً خاصة به، وللأرواح وللقلوب أعمالاً خاصة بها، فلا أعمال الأرواح تسقط أعمال الأشباح، ولا أعمال الأشباح تسقط أعمال الأرواح، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات ١٦٤، فإذا تحقق الواصل بتلك الحقيقة، أقام الجسم حيث أقامه الله، وسارع إلى تنفيذ أوامر الله، بمعونة وتوفيق الله، وبعض السالكين قد يسمع إشارات الواصلين بلا ذوق ولا تمييز بين الرتبتين، فيقلد إشارات الواصلين، بلا ذوق ولا تمييز بين الرتبتين، فيقلد السالك الواصل تقليد استسلام، وهو نهاية الجهل بطريق الله، فإن للسالكين مشاهد عن علم اليقين، وللواصلين مشاهد عن عين اليقين. فالواجب على السالك

أن يقف عند العلم مهما كانت إشارات أهل الوصول، حتى يصل إلى مقامهم العلى، وتصول عليه صولة الحق، وتجول عليه جولة المقتضيات، ولديها يكون غير مقلد، والتقليد فى طريقنا هذا ضلال، وإنما الحجة القائمة أمام السالك هو المرشد الكامل المتمكن، فمن التفت عنه فى سيره ضل وهلك، وإن كثيراً من السالكين يميلون إلى الذين اختطفتهم العناية من أهل الجذب فيقلدونهم، فيضلون، وليس المجذوب إماماً للمتقين، وإنما هو رجل اختطفته العناية من الأزل، ومن اقتدى بالمجذوب فى سيره، لم ينتفع بحال من الأحوال، وليس من تعلم العوم، وتمرن عليه، حتى أمكنه أن يخوض عباب البحر، كمن تربى بالبادية، فلو قلد وألقى بنفسه فى البحر أهلك نفسه، فالواجب على السالك أن لا يلتفت عن المرشد الكامل، خشية على نفسه من الهلاك. والله تعالى أسأل أن يحفظنى وإخوانى من التقليد فى طريق الله تعالى إنه مجيب الدعاء.

الإخلاص عند أهل التمكين

هنا ينبغى أن أمسك القلم عن البيان إلا بقدر معلوم. الإخلاص عندهم شهود معانى تجليات الأسماء والصفات حال العمل، وإشراق أنوار المواجهة بتمييز الحضرتين بعد العمل، ليكون الإخلاص خلوص العمل من الإخلاص فيه، بالفرار من رؤية الإخلاص فى حال التحقق به، فإن رؤية الإخلاص توجب الشوب فى شهود التوحيد بالتوحيد، لما يترتب عليها من إثبات الإخلاص للعامل، ونسبة العمل إليه، وهو الشرك الأخفى عنده، لأنه يؤدى إلى نسيان الواحد الفاعل المختار، ونسيانه يؤدى إلى نسيان النفس. قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ الحشر ١٩، ومعنى ذلك عندهم، أن المخلص إذا شهد الإخلاص، وشهد العمل، نسى المنَّان الموفق الهادى المعين، ومتى والعياذ بالله نسيه أنساه الله نفسه، ومعنى أنساه نفسه: أى أنساه حقيقتها من العدم، والذل، والعجز، والضعف، وباقى معانى العبدية، فإذا نسى نفسه أعاذنى الله وإخوانى المؤمنين، أثبت لنفسه صفات الحق، فصار فرعون زمانه، إما بالغرور ظاهراً، وإما بالشرك الأخفى، وأهل التمكين أصحاب نَفَس، والسالكون أصحاب أحوال، والواصلون أصحاب وقت، وحصن الأمن لأهل التمكين، إن لم يكونوا فى صحبة الوارث المحمدى، كتاب الله تعالى وعمل رسول الله ﷺ، فبهما يذوقون مشاهدهم، فإن وافقت الكتاب والسُنة، فمشهد حق بحق، وإن خالفت الكتاب والسُنة، فمن لمة

الشيطان، وكل شهود عندهم يخالف كتاب الله وسُنة رسول الله كفر وضلال.

وإنى أضع ضابطاً لأهل التمكين، به يدفع الله عنى وعنهم شر الوسواس الخناس، من شياطين الإنس والجن، وهو يسير فى عمله سير العلم، ويشاهد العامل فى سيره الحكم، حتى يكون حراً من رق الرسم، عبداً صرفاً لذات الله تعالى، مشهده الحكم، اقتداء بالسيد الأكمل ﷺ لتتميز الحضرتان، وسيره العلم، ليحفظه الله تعالى بالعلم من الشرك الخفى والأخفى، وهذا من أدعياء الطريق من يكون مشهده العلم، فيهدم أسوار الشريعة، ويستظهر على حضرة رسول الله ﷺ، وهم الذين استهوتهم الشياطين، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة ١٣، فإذا اشتدت الحيرة، حتى همدت نار البشرية، وتطهرت النفس من دخان الإبليسية، تحقق أهل التمكين بحق اليقين، وصار الحق معالم بين أعينهم، ويخلصون من الإخلاص بترك الإخلاص، قال ﷺ: (والمخلصون على خطر عظيم). ولا ينجو من الإخلاص إلا من تخلص بالإخلاص منه، وهو مقام قوله ﷺ: (إن لله عباداً تركوا حظوظ أنفسهم، ثم تركوا الدنيا، ثم تركوا العقبى، ثم تركوا الرؤيا، ثم تركوا الشهود، ثم تركوا الترك).

أسأل الله تعالى أن يحققنى وإخوتى بحقيقة الإخلاص له تعالى به، حتى نفنى عن شهود الإخلاص، بشهود الفاعل المختار، الهادى، الموفق المعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مقام أولى الإخلاص خشية مولاهم ... لذاك تراه بالحقيقة أولاهم
ورأيت من نظر الحقيقة تنجلى ... بجوهر إحسان المشاهد
وأهل الفنا فى الله من عرفوا به ... وذاقوا شراباً فى الحقيقة أعلاهم
رأوه بأوصاف تجلت فأيقنوا ... بأسمائه الحسنى وبالقرب ملاهم
وأهل مقام الفرق قد تكملوا ... بنور الهدى شرع الشريعة مجلاهم

❊ ❊ ❊

مقام التوبـة

قال ﷺ: (الندم توبة)، وقال ﷺ: (إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب).

والتوبة هى الندم والاعتذار، أو الإقلاع. ومتى شعر التائب بالمعانى الآتية تحقق أن الله سبحانه وتعالى تاب عليه، وهى:

أن يبلغ به تعظيم الجناية، واتهام النفس، وطلب الاعتذار عن الخطائين، مبلغاً يشهد فيه بلاء انخلاعه عن العصمة حين إتيان الذنب، وسوء فرحه عند الظفر، وشؤم قعوده على الإصرار، عن تداركه واعتقاده أن الحق ينظر إليه.

نيل أنوار التوبة

ونيل أنوار التوبة بثلاثة أشياء: أن يميز بين داعى الحق الجلى، وأن ينسى الجناية، وأن يتوب عن التوبة أبداً، لأن أكمل تائب داخل فى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ النور ٣١، فقوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ شملت كل مؤمن، مهما بلغ من مقامات اليقين.

مشاهد أهل الصفا فى التوبة

ولأهل الصفا مشاهد علية فى التوبة يقوى بها اليقين، ويحلو بها التمكين، ويصفو بها الوقت، ويحلو الحال... مصدرها الجناية، فإنه يشهد مراد الله تعالى فى وقوعه فيها، حين أسبل عليه الستر عند إتيانها، فإن الله يستر العبد عند وقوع الذنب، ليشهده سبحانه وتعالى بعد التوبة عزته فى تنفيذ قضائه، ولطفه فى ستره عليه، وحلمه فى إرجاء العقوبة عنه، وفضله العظيم فى قبول المعذرة منه، وكرمه العميم فى معرفته، هذا بالنسبة لمن سبقت لهم الحسنى، أما من لم تسبق لهم الحسنى، فإن الجناية لإقامة الحجة على العبد بعدله سبحانه، فيعاقبه الله سبحانه على ما جناه، وتكون له الحجة البالغة.

❊ ❊ ❊

مشاهد التوابين

ومشاهد التوابين من العُباد والنُساك والزُهاد، أن يعلم سوء فعله الذى لم يبق له حسنة بحاله، وهو طلب النصير الصادق فى زعمه غير الحق، وبذلك يكون مسارعاً إلى مغفرة من ربه، وجنة عرضها السماوات والأرض، لسيره وسطاً بين مشاهدة المنة، والبحث عن عيب النفس، والعمل الصالح.

لطائف التوبة

ولطائف التوبة عند أهل مقام التوحيد بالتوحيد، من أهل الجمع المستغرقين فى شهود وحدة الأفعال، أن شهودهم للحكم يجعلهم لا يستحسنون حسنة، ولا يستقبحون سيئة، لصعودهم عن جميع المعانى إلى معنى الحكم، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الأنعام ٥٧، فهم يتوبون عن كل أعمالهم بإخلاص عزم، وإقلاع حزم، فراراً من الشرك الخفى، ولا يتم مقام التوبة عند العارفين، إلا بالتوبة مما دون الحق، ثم بالتوبة من رؤية التوبة، ثم بالتوبة من التوبة ومن رؤية التوبة، بذلك يتحقق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، ويذوق طهور قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا۟﴾ التوبة ١١٨، ويشهد نور قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الحجرات ١١.

أسأل الله أن يمن على وعليك أيها الأخ المقبل على الله بتوبة منه، وعناية وإقبال على حضرته العلية، إنه مجيب لدعاء.

هو التوب يصحبنى من البدء للختم ... أتوب إلى التواب من مقتضى ظلمى
ولى توبة من توبتى حال جلوتى ... أرى ترك تركى فى التجمل بالصوم
فأحبس نفسى جاهداً ومشاهداً ... لتسكن للمولى المنفس بالسلم
فأسلم تسليماً له وبه ولى ... مزاج من الإيقان فى الصفو بالعلم
وأسلم إسلاماً رضاء توكلاً ... له وبه حتى أجمل فى رسمى
يخلقنى منه بأخلاقه التى ... بها حضرة الإطلاق قرب بلا إثم
ولى فى مقامات اقترابى نشوة ... أرى توبتى من توبتى بانمحا ظلمى
نعم هو تواب يتوب أتوب من ... شكوكى وشركى باليقين وبالعزم

ولى حال تقريبى الإثابة مشهد ... وجودى به عين الإنابة بالحزم
أنيب إليه من وجودى ومن أنا ... لديها أرى الوجه الجميل بلا غيم
به السمع والبصر الشهيدان والنهى ... فأسمع من فى اتصافى بالحلم
تلوح المعانى يختفى مظهر البها ... تغيب المبانى وى كأنى فى نوم
أرى الغيب مشهوداً أرى المظهر الجلى ... تستر بالأنوار لا لوم يا قومى

❊ ❊ ❊

تحب التائبين اقبل متابى ... وأشهدنى جمالك فى اقترابى
وهب لى العفو واغفر لى ذنوبى ... وجدد بى الشهود اقبل إيابى
أنبت إليك مضطراً أنلنى ... قبولاً فى حضورى أو غيابى
وعمر باليقين الحق قلبى ... وبالرضوان منك اجعل حسابى
ويوم العرض بشرنى إلهى ... وأسمعنى السلام لدى الجواب
وأنت الله تواب كريم ... أعدنى بالجمال إلى ترابى
لأفرح باللقاء أرى جميلاً ... يدير على من صافى الشراب
يواجهنى بأنوار التجلى ... يجملنى بنور الانتساب
ويجعلنى له عبداً منيباً ... تجمل بالعبودة فى الصحاب
ومقعد صدق فاجعله مقرى ... لأحظى بالشهود لدى الجناب
لديك مؤانساً بالوجه يجلى ... لروحى باتحاد فى الرحاب
ألح لى الغيب مجلى الذات نوراً ... يضئ حقيقة هى من تراب
وسح بى فى العوالم حيث بدئى ... أعدنى يا معيد لدى اقترابى
أدر لى الراح بالعين امنحنى ... جمال الاجتلا بعد المتاب
أمتنى مسلماً والقبر فاجعل ... رياض الأنس فى حال اغترابى
غريباً صرت فى شيبى وسقمى ... وأنت ولى عبدك من شبابى
وفى شيخوختى جمل جميعى ... وآنسنى بلا قيد الحساب
أنا الخطاء فى شيبى شبابى ... وأنت ولينا حسن مآبى
وأولادى وإخوانى امنحنهم ... جمال الاجتلا فضل انتسابى

الباب التاسع

مقام الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ النحل ١٢٧، أشار بفريضة الصبر بالأمر، ثم أشار بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ النحل ١٢٧، إلى خالص التوحيد فى الشهود وصافى التجريد فى الوجود، فإنه سبحانه وتعالى أوجده وكلفه، ثم أشهده وجوده به، وتوفيقه ومعونته على الصبر به سبحانه فكان صبره بالله، كما أن وجوده به جل جلاله، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ الطور ٤٨، فأمره سبحانه وتعالى بالصبر لحكم ربه سبحانه.

ومعلوم أن حضرة الربوبية تختلف بحسب مقامات أهل الشهود، ولما كان شهود سيدنا رسول الله ﷺ فوق شهود عالين، ودونه مشاهد الكروبين، وبه ﷺ استمدت أرواح الرسل الكرام كان قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أحدية الذات، فى حضرة الطمس، والإشارة إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ النجم ٩، فإن قاب قوسين مشاهد أهل الخصوصية من أولياء الرسل و﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ النجم ٩، المشهد الخاص للمحبوب الأكبر ﷺ، وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ آل عمران ٨١، ولأهل الذوق من أئمة أهل الفرق الأخير، بعد الجمع الأخير، إشارات فى هذا المقام العلى، لا يفقهها إلا ذو نفس تزكت قال الله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس ٧-٩، والفلاح كما هو معلوم الفوز بنيل المقاصد، والمقاصد تتفاوت بحسب درجات القرب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ آل عمران ١٦٣، وليس من مقصده مكون الأكوان، كمن مقصده النعيم فى الكونين، قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ المجادلة ١١.

أنواع الصبر

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ النحل ١٢٧، إشارة الى الصبر فى الله على تحمل أعباء الرسالة وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ الطور ٤٨، إشارة إلى الصبر

لله فى مقام حق اليقين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور ٤٨، والحكم إما تقديرى وإما تشريعى، وهذه الآية تدل على وجوب الصبر لحكم الله فى الحالين، وإن كان المتبادر منها الأمر بالصبر على إمهال الله لأعدائه، مع دوام أذيتهم لرسول الله ﷺ، لأن ذلك حكم تقديرى، لا مرد له من الله لحكمة اقتضتها كمالات الربوبية، سر قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هود ١٠٥، ولا يتميز النوعان إلا بما أظهره الله تعالى من الشئون التى حيرت العقول، قال الله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ القمر ٥ .

فإن الصبر بالحكم التشريعى مدلول عليه بالآية، فإنه مأمور شرعاً أن يدعوهم إلى الله، وأن يذكرهم بأيام الله سبحانه وأن يبين لهم سبله الموصلة إليه جل جلاله ولم تحصل منهم له ﷺ العداوة والأذية، إلا لقيامه بالحكم الشرعى، فهو ﷺ صابر لقضاء الله وقدره صابر لأحكامه وشريعته، فظهر أن الصبر بالله سبحانه وأن الصبر لله ولحكمه، وللصبر أنواع أخرى، وهى الصبر مع الله، والصبر فى الله قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الكهف ٢٨، فمن صبر مع الله كان الله معه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ البقرة ١٥٣. ومن صبر فى الله اجتباه الله، والصبر فى الله ثبات فى الجهاد لإعلاء كلمة الله قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ الحج ٧٨.

وهناك صبر أهل الجهالة الذين أبعدهم الله عنه، وحرمهم سعادة الدنيا والآخرة، وهو الصبر عن الله والعياذ بالله، ويكون عن الجهل بالتوحيد، وبنسيان يوم الوعيد، وبالغفلة عن العبر التى يشهدها الإنسان فى كل يوم من تغير الدول وتحويل الأحوال، وتوالى الليل والنهار، وكيف لا وفى الإنسان شئون تذكره بربه، إن لم تكن فى كل نَفَس ففى كل يوم، فيكون رضيعاً فصبياً فكهلاً فشيخاً فهرماً، ويكون فقيراً فيصبح غنياً، ومريضاً فيصبح صحيحاً، ومن صبر عن الله وهو المضطر الفقير إلى الله تعالى، تعجل لنفسه نقم الله فى الدنيا والآخرة نعوذ بالله، وقد يستدرج الله تعالى أهل الغفلة، حتى إذا أخذهم لم يفلتهم.

جيش الحق وجيش الباطل

والصبر إقدام جيش الحق فى الإنسان بثبات وعزيمة، على جيش الباطل فيه أولاً، ثم ثبات على مجاهدة نفسه فى طاعة الله تعالى، والعمل بسنة رسول الله ﷺ، ثم ثبات فى

مجاهدتها على ترك ما نهى الله عنه جملة واحدة، ثم ثباتها على تحمل مواقع القضاء بالرضا، ثم ثباتها على تحمل عظائم الأمور، فى المسارعة إلى الحب فى الله والقرب، ومن تفضل الله عليه بتلك المعانى فقد فاز فوزاً عظيماً، وكفى شرفاً لأهل الصبر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ البقرة ١٥٣.

وجيش الحق فى الإنسان هو عقله الذى يعقل عن الله، وتصديقه بوعد الله ووعيده، وشهوده منة الله عليه فى إيجاده وإمداده، وخوف مقام ربه فيما كاشفه الله به من جلى آياته، والمحافظة على التشبه برسول الله ﷺ، والحرص على أن يكون من أهل معيته، الذين وصفهم الله تعالى فى آخر الفتح، والرغبة فيما رغبه الله فيه، وحب ما أحبه الله، هذه هى جيوش الحق التى فى الإنسان. أما جيوش الباطل فيه فسلطان شهوة المأكل، والمشرب، والمنكح، وثورة الأمل، والطمع، وشرارة الهوى، والشح، وظلمة ضعف الإيمان، ونسيان يوم الوعيد، ومتى ثبت جيش الحق أمام جيش الباطل، وهزمه، وأخرجه من مدينة الهيكل الإنسانى، فإن الإنسان يمثل مملكة عظيمة، كما قررت ذلك فى مواضع علم النفس، فى كتابى "النور المبين" و"معارج المقربين". وبانهزام جيش الباطل يقوى جيش الحق، فيكون الإنسان ملكياً روحانياً بأخلاقه وأعماله، وإنساناً بشكله وظاهره، منظوراً بأعين الله تعالى، محبوباً عند الملائكة والناس أجمعين، حاشا إبليس وجنوده.

الصابرون أئمة للمتقين

قد جعل الله تعالى الصابرين أئمة المتقين، وتم كلمة الحسنى عليهم فى الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة ٢٤، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الأعراف ١٣٧، وقال ﷺ: (إن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً). وقد جعله سيدنا على عليه السلام ركناً من أركان الإيمان، وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان، فقال: (بنى الإسلام على أربعة دعائم: على اليقين والصبر والجهاد والعدل)، وقال كرم الله وجهه: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له)، وأخبر ﷺ: أن من أوتى نصيبه من اليقين والصبر، لم يسأل ما فاته. وأخبر عليه الصلاة والسلام أن بالصبر كمال العمل والأجر، فقال: (من أقل

ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء، عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه)، ثم قرأ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ النحل ٩٦، وقد قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ القصص ٥٤، وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر ١٠.

وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الأنفال ٤٦، كما قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ محمد ٣٥، واشترط الصبر لإمداده بجنده، والنصرة بتأييده بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران ١٢٥، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: (نعم العدلان، ونعمت العلاوة للصابرين) يعنى بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يعلى به فوق الحملين على البعير، ليكون كعدل ثالث، وكان سهل التسترى يقول: (الصبر تصديق الصدق، وأفضل منازل الطاعة الصبر على ترك المعصية مع الباعث، ثم الصبر على الطاعة)، وقال فى معنى قوله عز وجل: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ الأعراف ١٢٨، أى استعينوا بالله على أمر الله، واصبروا على أدب الله، وكان يقول: الصالحون فى المؤمنين قليل، والصادقون فى الصالحين قليل، والصابرون فى الصادقين قليل، فجعل الصبر خاصية الصدق، وجعل الصابرين خواص الصادقين. وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: (لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: (مؤمنون أنتم؟) فسكتوا فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: نعم قال: (وما علامة إيمانكم؟) قال :نشكر فى الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: (مؤمنون ورب الكعبة). وقال ﷺ: (الصبر فى ثلاث: الصبر عند تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشره).

هذا وقد فصلت فى كتاب " أصول الوصول" مجمل مباحث الصبر لكل منزلة من منازل السالكين، فراجعه لمزيد العلم، قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ طه ١١٤.

الصبر عند السالكين

أولاً صبر السالك عن المعصية

السالك هو الذى يجاهد هواه وحظه، فهو بين خوف من العقوبة وحياء من الحق، فالخوف يبعثه على ترك المعصية فيصبر عن المعصية حفظاً للإيمان، لأنه تحقق وقوع الوعيد على من اقترف المعصية، فيحذر الحرام خشية من العذاب، والحياء يدعوه إلى مراقبة ربه، وهو من أكمل شعب الإيمان، وصاحب الحياء يتروح بروح الإحسان، فيصبر عن المعصية حياء من ربه، والصابر عن المعصية حياءً أكمل من الصابر عنها خوفاً، لأن صاحب الحياء فى مراقبة، وصاحب الخوف فى مقام مجاهدة، والمعصية تنقص الإيمان، أو تحجب عيون القلب عن مطالعة أسراره، قال ﷺ: (لا يزنى الزانى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف، يدفع إليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)، فإياكم إياكم والتوبة معروضة بعد، ومن حذر من الحرام احتاط فى المباح، فإن التوسع فى المباح سلم الوقوع فى الحرام، ومن صبر حذراً من الحرام جعل الله بينه وبين الشبهات سوراً من المباح، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ الحديد ١٣، فمن لم يحصنه الله بهذا السور فى الدنيا، وقع فى العذاب فى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٧٢، فمن لم يكن له بصر ليبصر به مواقع الشبهات، ويتحصن منها بترك كثير من المباحات، وقع فيما حرمه الله.

ثانياً تبصرة السالكين

بعض السالكين يجهلون السلوك، فيكثرون الذكر بألسنتهم، ويكثرون الصلاة والصوم والحج وقراءة القرآن، ويظنون أنهم بلغوا درجة القرب، ويتساهلون فى وجه القوت وفى المعاملات، فيكون قوتهم من الحرام ومعاملتهم فى الحرام، لا يبالون ما نهى الله عنه من صريح الحرام، وما نهى عنه رسول الله ﷺ من الشبهات، ويظنون أنهم على خير وفى خير، لجهلهم

بآداب السلوك، ومخاوف السالكين، وملاحظات المجاهدين، وإن كانت أعمالهم التى يعملونها يستندون فيها إلى بعض الأفراد الذين أشهدهم الله علىَّ جماله، فغابوا عن أنفسهم وعن الكونين، وفروا إلى الله، وتركوا العمل للدنيا، وهؤلاء ليسوا أئمة للمتقين، ولا قدوة للسالكين، لأنهم فى مقامات محبة الله، ومتى أحب الله العبد لا يضره ذنب، خصوصاً وأن ما يجريه الله على أيديهم لم يكن لحظ، ولا لقصد، ولا لكسب منهم، فإذا تركوا العمل للدنيا، أو هجروا الخلق، أو اختفوا عن الناس فى خلوتهم، أو تفضحوا ليسقطوا من قلوب الخلق، فرفع الله ذكرهم، فإن ذلك كله لم يكن لحظ خفى فى نفوسهم، بل لصولة الحق عليهم، ولما واجههم به سبحانه.

والواجب على أهل السلوك أن يحفظوا مقامهم الذى أقامهم الله فيه، فلا يتجاوزوا مراتبهم، ولعلك تعلم أن الله تعالى أمر كليمه ﷺ بالسياحة إلى العبد الصالح، الذى أتاه الله منه علماً، ومع أنه مأمور من الله بصحبته، أنكر عليه، وهو رسول الله المعصوم حفظاً لمقام الرسالة، فإذا كان كليم الله المعصوم، المأمور من الله تعالى بصحبة العبد العارف، حفظ مقامه مع هذا العبد، وأنكر عليه ما لم تستبين له حكمته، فأنت أيها السالك المسكين أحق بأن تحفظ مقامك فى السلوك، فإن السالك إذا تعدى قدره، وتشبه بأهل المحبة المقربين، تاه فى بيداء الهلاك، وشطح شطح الضالين، والطريق وعر، وكيف ينجو من هو فى أول مرحلة؟ بينه وبين مقاصده مفازات وصحارى ومخاوف، فسمع أخبار من وصلوا إلى مقصدهم وأحوالهم، فجهل نفسه، وجهل مرحلته التى هو فيها، وجهل المراحل الشاسعة، وظن لجهله أنه مقام الوصل، ثم نسى ظنه، وادعى أنه واصل.

تنبه أيها السالك، وجاهد نفسك فى ترك المعصية حتى تطهر، وتضرع بترك أكثر المباحات، حتى تتحصن بحصون الخوف من الوقوع فى المحرم والشبهات، وتأدب فى كل مرحلة من المراحل بآدابها، فإن من ساء أدبه على الأعتاب، رد إلى رعى الدواب، ومعنى ذلك: أن سوء أدبه على الأعتاب، يدل على أن نفسه بهيمية شهوانية، فيرد إلى تأديبها وتهذيبها، والله يحفظنى وأخوتى من سوء الأدب فى المراحل من التشبه بالمرشد الكامل فى أحواله الخاصة به، ويرزقنا به التشبه بأعماله وأخلاقه التى هى نجاة السالكين والواصلين والمتمكنين.

الصبر عند الواصلين

أولاً صبر الواصل على الطاعة

لما كان الواصل هو من كمل إيمانه، وتناول شراب الإحسان، فكان مشاهداً للحق، أو متيقناً أنه مشهود من الله، ولا يتحقق بمقام الوصل إلا من ترك ما نهى الله عنه جملة، وترك كثيراً من المباح خوفاً من الوقوع فى الشبهات والحرام، مع المحافظة على آداب السنة، أكثر من محافظته على نفسه التى بين جنبيه. ومقام الواصلين فى الصبر، أن يصبروا على الطاعة بمراعاة ما به تكون طاعة حقاً، وقد بين الله روح هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ المؤمنون ١-١٠.

والصبر على الطاعة هو صبر على جميع أنواعها، سواء كانت من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح، لأنه يصبر على دوام تأديتها فى آنائها.

ولما كانت الطاعة لا تكون طاعة حقاً مقبولة إن كان الباعث عليها غير وجه الله تعالى، بأن دعا إليها نيل أجر فى الآخرة أو فى الدنيا من رياء وشهوة وشهرة خفية، أو لخديعة عباد الله، من أمراض النفوس التى تخفى على أهل الوصول، فيجب أن يصفى أعماله بالإخلاص. فإن عدم مراعاته الإخلاص فى الطاعات يجعلها معاصى، فإن الطاعة إذا قصد بها غير وجه الله تعالى توقع فى الشرك الظاهر أو الخفى، فإن الله تعالى تفضل علينا بالإيجاد والإمداد، لا لعلة وحاجة إلينا، بل فضلاً منه، وكرماً خالصاً، فكيف يقبل منا عملاً عمل لغيره؟ ونحن الفقراء إليه، وهو الغنى عنا، فإذا راعى الإخلاص فى أعمال الطاعات، طولب بأن تكون الطاعات مطابقة للعلم، ظاهراً وباطناً، أما ظاهراً، فتكون مطابقة لما كان عليه رسول الله ﷺ، وما كان عليه أصحابه رضوان الله عنهم أجمعين، ويلاحظ فى ذلك العلم باطناً من شهود أن الله جل جلاله هو الذى وفقه وأعانه، وهداه ويسر له فعل ما أمره، بمعونة منه وقدرة وإرادة منه سبحانه، فيشهد أن الله أنعم عليه بتلك النعم كلها، ويرى أن العمل نعمة

من الله عظمى، فيسأل الله تعالى أن يعينه على شكر هذه النعمة، ويرى نفسه أحقر من أن تكون له قوة أو حول يقوم بهما لله بما أوجب، فيستغفر الله من أن تخطر تلك الخواطر على قلبه، لما انبلج له من أنوار التوحيد، ثم يسأل الله تعالى أن يتفضل عليه بقبول ما من به عليه، وأن يديم له الشكر، ويعينه عليه، وبذلك يكون قد نال مقام الصبر فى نزل الواصلين، ويكون الله معه، لأنه صابر مع الله تعالى.

ثانياً تنبيه للواصلين

يجب على الواصل أن يراعى الأدب فى ملاحظة تلك المعانى، والأدب فى هذا المقام دوام النظر إلى النفس بعين التقصير، حتى لا تخرج عن الأدب، فإن العبد عبد وإن علا، والرب رب وإن تنزل، وسبحان العلى العظيم الغنى عن طاعات عباده، الذى لا تضره المعاصى وإن جلت، ولا تنفعه الطاعات وإن عظمت، ومحل الضر والنفع هو العبد، وبمراعاة الآداب يدوم نفعه، وبنسيان حقيقته يعرض نفسه لحتفه، حفظنى الله وإخوتى من سوء الأدب فى كل منزلة من منازل القرب والوصول.

الصبر عند أهل التمكين

لما كان مقام التمكين لا يبلغه إلا من قام بخالص العبودية، مسارعاً إلى ترك ما نهى الله عنه جملة، والعمل بما أمره الله به على الوجه الذى قررناه بعد استطاعته، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن ١٦، وسبق لى أن الحكم أمران: حكم قضاء وقدر، وحكم أحكام ومعاملات. ولما كان المتمكن أعانه الله فقام بحكم الأحكام والمعاملات، وبقى عليه القيام بحكم القضاء والقدر، لأن مقامه مقام تمكين عن شهود عين أو حق اليقين، وأشار الله تعالى إلى أهل هذا المقام بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ آل عمران ٢٠، اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى وصابروا بقلوبكم على البلوى فى الله تعالى، ورابطوا بإصراركم على الشوق إلى الله تعالى.

والصبر عند أهل التمكين صبر فى البلاء، يدعو إليه اليقين بحسن الجزاء عليه، ويسهل ثقل البلاء انتظار الفرج من الله تعالى لمشاهدة أنوار قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الانشراح ٤-٥.

ويسهل وقوع البلاء على القلوب، بعد سوابغ النعم، وجزيل المنن وتذكر الآلاء، وقد ظن قوم أن الصبر على الطاعات والقربات أكمل من الصبر على البليات، ولاحظوا فى ذلك أن الصبر على الطاعات باختيار العبد، وأن الصبر على البليات بالإكراه، فنظروا إلى مشاهدهم، وحكموا بها على أهل المقامات العلية، والحقيقة أن الصبر على البلايا أشد وأصعب من الصبر على الطاعات، لأن الصابر على الطاعات آنس بمعان مشهودة وملحوظة، أما المشهودة له فلأنه عبد وفقه الله لما يحبه، وأقامه مقاماً يرضى به عنه، مع نظره لأهل المعاصى والكفر بالله، والملحوظة نيل رضاء الله يوم القيامة وحسن الثواب منه، سبحانه وتعالى والفوز بجوار رسول الله ﷺ فى مقعد صدق.

وأما الصبر على البلاء، فإن العبد فيه يسأل الله العفو والعافية، بين فادح الآلام والخوف من أن يكون ما هو فيه عاجل نقمة من الله، وبين شماتة الأعداء من أهل الباطل، وحزن أهل الإيمان، وإخفاء ما يدعو إليه فلا يصبر على تلك المعانى كلها إلا مُكاشف بأسرار المبلى سبحانه وتعالى مشاهد لجلاله جل جلاله، متمكن من كمال التوحيد بالتوحيد، ولعلك تعلم أن أعظم الناس بلاء الأنبياء، وأكمل الناس صبراً على البلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وان الصبر على الطاعات، والصبر على ترك المنهيات، قد يتصف بهما المستدرج الذى يعمل العمل لغير الله، لينال شهرة أو ليكون له نفس ذات تأثير، وكم من صومعة بها رجال تركوا حظوظهم وشهواتهم، وأقبلوا على العبادات وهم كفار، وكم من متريض ترك طيبات المأكل والمشرب والمنكح والمسكن وأقبل على العبادة، ليعلم الغيب أو لتكون له نفس مؤثرة ذات أحوال شيطانية كالكهان، وشتان بين صبر على بلاء المبلى لشهود كماله وجماله وجلاله، ولعلمه بأخلاقه سبحانه، ومن صبر على ترك ما نهى عنه وعمل بما أمر به لينال الجزاء منه، وبذلك كان الصبر على البلاء مقام أهل التمكين.

عيون الرأس تشهد المبانى ... وعين القلب شاهدت المعانى
فمن شهدوا بعين القلب هاموا ... بحبى مسرعين إلى التدانى
ومن شهدوا بعين الرأس حجبوا ... عن الأنوار والسر المصان
رموا بالقذف من شهدوا جمالى ... ليرتدوا عن الكشف العيان

فحصنت المحب بحصن حفظى وألقيت العدو إلى الهوان
ومن صبروا على كيد الأعادى تحلوا بالتقرب والجنان
فرتل ﴿مَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ بفكر تدوم لك البشائر بالتهانى

❊ ❊ ❊

الباب العاشر

مقام الرغبة

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ الأنبياء ٩٠، وقال ﷺ: (سبق المفردون، وضع الذكر عنهم أثقالهم).

وقال ﷺ: (الدنيا حرام على أهل الأخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، والدنيا والآخرة حرامان على أهل الله).

والرغبة إقبال على الحق بعد وجود، وهى أعلى من الرجاء، لأن الرجاء إقبال على الحق قبل الكشف، حتى إذا خصه بعين اليقين أو بحقه رغب، وهى من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الرغبة عند السالكين

الرغبة عند السالكين هى جذبة النَفْس بالكلية عن يقين العلم إلى الحق مسارعة وإقبالاً، وينتج عنها أحوال، منها انزعاج النَفْس إلى المسارعة لما يكون به الفلاح، مجاهدة بعمل ما لا يتحمله إلا أهل العزائم، ونفوراً مما يلائم النَفْس ولو كان مباحاً تعظيماً لأمر الله، وسعياً فى نيل مراضيه ومحابه سبحانه، ومنها حال يقظة القلب لمشاهدة ملكوت السماوات والأرض، ومنها حال نسيان المعاصى، حتى لا يخطر على قلب صاحب هذا الحال ليقظة قلبه أن أحداً يقع فى رخصة فضلاً عن صغيرة، لا لاستعظام الصغائر والرخص، بل لعظمة المطلع عليه سبحانه وتعالى حين عملها.

الرغبة عند الواصلين

الرغبة عند الواصلين هى رغبة أهل التلوين من المتمكنين فى حالهم، وهى وميض برق التجلى الذى يجعل أهله ترخص فى أعينهم نفوسهم، وتتضاءل احتقاراً فى قلوبهم هممهم، وتحتقر لديهم نفائسهم، فيبذلون كل ذلك رغبة فى الفرار إلى الحق مما سواه، فتتحد همومهم وتكون هماً واحداً فى الله، وتفنى كل مقاصدهم إلا المقصود الأول سبحانه، وأهل هذا المقام يحلو لهم الملام ويسير لهم المرام وهم أئمة الملامتية، لأن أحوالهم الداعية لبذل نفائسهم وأنفسهم، ورضاهم بالمهانة والابتذال والدناءة، تجعل الناس يظنون فيهم الجنون، وليسوا بمجانين، ومن جهل شيئاً عاداه، ومن ذاق عرف. وهنا أنبه إخوانى أن الأحوال لا تكون إلا ماحقة للأغيار، محقرة لزينة الحياة الدنيا، منفرة لقلب الواصل عن أن يطمئن إلا بذكر الله، ومن كان حاله لا يحقر فى عينه الدنيا وما فيها، فليس من أهل الأحوال ولا من أهل علم اليقين فضلاً عن أن يكون من أهل عين اليقين أو حقه، قال ﷺ: (من عرف الله صغر فى عينه كل شئ)، وأهل مقام الرغبة كما قررت لك، هم أبدال رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

الرغبة عند أهل التمكين

الرغبة عند أهل التمكين إشراق أنوار التجلى فى حال التحلى، وشهود ذلك حيث كان المتمكن ولى، وبذلك يقوى الهيام بارتشاف المدام وشهود الجمال ممزوجاً بالجلال، فيشهد الشوق مع الخشية فيكاد الشوق يخرجهم عن التوسط، فتحيط بهم الخشية فتردهم إلى حصون الأمن، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢، فلا يخرجهم الشوق عن إنسانيتهم، ولا تقهرهم الخشية إلى آدميتهم، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة ١٤٣، وفى هذا المقام تكون الجمعية على الحقيقة، بحفظ آداب الشريعة، قال تعالى ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الأنعام ٩٠.

قلبى ونفسى فى رغب وفى رهب ... القلب يخشى ونفس العبد فى الطلب

يقول قلبى يانفس نفست فما ... تلك الرعونات بعد العلم بالرب

هيا أنيبى إلى مولاك فى حلل ... من الرضا بمعانى الصدق والحب

يا نفس مالك بعد العلم قد ظهرت علامة الجهل عن أصلى وعن نسبى
قد آن يانفس أن ترضى محققة قدر العلى بحال الخوف والرهب
شأنى وشأنك يا قلبى مباينة سكونك القرب بالإجلال والأدب
إذا سكنت فقد أدركت بغيتنا وحالتى تقتضى سعيى إلى القرب
شتان بينى فى حالى وبينك فى عين اليقين بلا وهم ولا ريب
علمى بمن أسألنه عن مشاهدة عن الجمال عن الإحسان والرغب
فلا تلمنى فى الآمال إن بها سعادتى وبها أرقى إلى الرتب
ولا ألومك فى السكنى إلى أحد فذا السكون إليه غاية الطلب
فاسكن إليه ودعنى فى منازلتى فلى مقام بلا حولى ولا سببى
والذكر بين مرتبتى وميزها فاسكن إلى الله بالتسليم يا قلبى
دعاء ربى تحقيقى بمنزلتى به أقرب حتى ترفعن حجبى
سؤاله عين تحقيقى بمنزلتى بالاضطرار ليمحو سيدى كربى
وإننى العبد فى فقر وفى ضعة أرجوه يرمى الأعادى منه بالشهب
حتى أكون به فى حصن منعته من شر نفسى ومن هول ومن نوب
مجملاً بمعانى العبد متصفاً بحفظه فى حصون الحفظ والحسب
إذا قرأت ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ بحكمتها عذرتنى فى شئونى فاذكر سببى
سر التنزل يبدو لى فأشهده لأننى لوحه ونسخة الكتب
وأنت بيت لسر الكبرياء به سر المجالى لتبدى مظهر الرهب
فيك المهابة والرهبوت من أحد ولى البشائر والزلفى بلا نصب
أرجو الجمال فيسعدنى ويمنحنى وأنت تخشى من العظموت يا قلبى
وصل دوماً على النور المبن لنا خير الخلائق من عجم ومن عرب
وآله وصحابته وعترته بها نفوز بأعلى القرب والرتب

مقام الحُرمة

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ الحج ٣٠ وقال ﷺ فى الحديث الطويل: (ألا وإن لكل مَلِك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه).

الحرمة: التحفظ من الميل إلى المعاصى، ومجاهدة النفس خوفاً من النزوع إلى المنهيات، حتى يدوم كبح جماحها، تعظيماً للأمر بالمسارعة إلى القيام به، ورهبة من الآمر سبحانه وتعالى أن يقع فيما نهى.

الحُرمة عند السالكين

الحرمة عند السالكين قبول ما أمر به الله تعالى بالسمع والطاعة والمسارعة إلى العمل، وترك ما نهى عنه سبحانه وتعالى جملة واحدة، إجلالاً لعظمته وهيبة من جلاله، وإخلاصاً لوجهه الكريم، لا ليدفع عنه العقوبة فيكون ذلك عملاً للنفس، ولا لينال المثوبة فيكون أجير سوء، ولا لنيل المنزلة عند الناس فيكون متديناً بالمراءاة، ومن كانت فيه شعبة من تلك الشعب فهو عابد لنفسه، وقد شرحت لك الرياء والنفاق والإخلاص فى كتاب " أصول الوصول" وفى كتاب " الفرقة الناجية" فراجعهما ليدوم لك المزيد.

الحُرمة عند الواصلين

الحرمة عند الواصلين فقه يجعله الله فى القلب، يمتلئ به تجويف القلب تعظيماً لكتاب الله تعالى، وإجلالاً لكلام رسول الله ﷺ وخشوعاً لما ورد من الآثار، حتى لا تنزع النَفْس إلى التأويل، ولا تبتهج بتمثيل، خنوعاً للخبر بعد العلم أنه خرج من الله، وأن الذى جاءنا به هو رسول الله ﷺ، وأن للعالم إله باق، والعارف الروحانى إذا سمع الحديث أو القرآن اقشعر جلده، ولان قلبه لذكر الله، هيبة للمتكلم جل جلاله، واحتقاراً للعقل أن يحوم حوالى فناء حظائر العزة، وتبرئة من الحظ والهوى أن يكون لهما سلطان على القلب بعد سلطان كلام الله، وكلام رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الزمر ٢٣، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ آل عمران ٧.

فالواصل لا يدعى على الأخبار إدراكاً ولا توهماً، ويقول كما قال الله تعالى مخبراً عن الراسخين فى العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران ٧، فتوحيد الواصل توحيد العجائز، والعامة الذين يسلمون الأخبار، ويعتقدون ما فى ظاهرها أدباً مع المتكلم سبحانه ومن تعدى تلك الحدود كان مستدرجاً هاوياً فى مهاوى السخط والمقت أعاذنا الله جميعاً. وقد تجاوز أدعياء العلم والحال حدود ما أنزل الله، ذلك لأن الله تعالى كرههم، فصرفهم عن الحق إلى الباطل، وإذا كره الله إنساناً لم يوفقه لما يحب من الأعمال، ولم يعينه على القيام بأوامره، وكفى بُعداً للأدعياء أن الله كره أن يقيمهم مقام المقربين، من الذين وصفهم فى كتابه العزيز بأنهم أهل معية حبيبه ومصطفاه بقوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الفتح ٢٩، ومن لم يوفقه الله تعالى للصلاة خضوعاً للأمر، واقتداء بحبيبه ومصطفاه، فقد سجل الله عليه القطيعة، أعوذ بالله من مخالفة أمره.

الحُرمة عند أهل التمكين

الحرمة لأهل التمكين ثلاث منازل: منزلة البسط، ومنزلة السرور، ومنزلة الشهود.

أولاً الحرمة عند أهل التمكين فى مقام البسط

الحرمة عند أهل التمكين فى مقام البسط مواجهة لقدس الجبروت الأعلى تحفظهم فى البسط من إظهار مشاهد الروح بلا رمز، ومن الخروج عن الآداب المحمدية إلى الشطح، فإن الشاطح تائه، فهم فى أرقى مقامات البسط، مواجهون بسواطع عظموت تنكسر له قلوبهم، وعندما تنكسر قلوبهم يتجلى لهم الجبار فيجبرهم، كما قال ﷺ فى الحديث القدسى: يقول الله تعالى: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى).

ومن كان الله عنده لا تعلم نفس ما أخفى له، وكم زلقت أقدام رجال فى حال البسط، عندما قهرتهم أحوالهم فشطحوا أو تاهوا، ومنهم أبو الحسين الشهير بالحلاج، فإنه بسط له البساط، ودعى فتاه وشطح على البساط، وإنما الأدب والخشية يكونان فى مقام البسط، فإن العبد الذى يضيق قلبه عن تجليات معانى أسماء الجلال، إذا أشرقت عليه أنوار الجمال، غاب عن مكانته العبدية، وتعدى سور الحيطة الآدمية، فشطح تائهاً، فإن كان له مرشد كامل تداركته العناية، فأنجاه الله على يده، وإن لم يكن له مرشد، انمحت فى عينه مكانته البشرية، فاختل نظام تركيبه، وتعدى سور الحيطة وحصن الأمن، وما تقول فى تائه فى بادية الضلالة، لا يبالى به الشيطان أن يلتهم قلبه، فيضع فيه ما أحب؟ فمن كان على يد المرشد، فهو كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ البقرة ٢٥٧، وكما قال ﷺ: (يد المؤمن فى يمين الله كلما وقع أقامه)، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ الحجر ٤٢، وسأزيدك بياناً عند ذكر البسط وما يلزمك أن تكون عليه من آدابه.

ثانياً الحرمة عند أهل التمكين فى مقام السرور

الحرمة عند أهل التمكين فى مقام السرور تحققه بالعجز عن القيام بشكر المنن والآلاء والفضل المتوالية عليه من الله تعالى، فإن أهل منزلة السرور تجلت لهم حقيقة المنة الإلهية عليهم، حتى كوشفوا بمنن الله التى لا تحصى، ونعمائه التى لا تستقصى، فامتلأت قلوبهم شوقاً إلى الله وحباً فيه، ولاحت لهم أنوار عناية الله بهم ومحبته سبحانه لهم، فملأ السرور أفئدتهم وقلوبهم بما كوشفوا به من نعمائه، وانبلجت لهم أنوار مننه سبحانه وتعالى عليهم، فدعاهم السرور للعجز عن القيام بشكر النعماء، والقصور عن تأدية حق المنة، واشتد الحب الخالص للحق سبحانه قال ﷺ: (أحبوا الله لما يغدوكم به من النعم، وأحبونى لحب الله، وأحبوا آل بيتى لحبى)، وتبين جلياً أن أعظم منة لله علينا، هى نعمته علينا بحبيبه ومُصطفاه ﷺ، فكان هذا الكشف حصون أمن فى مقام السرور، لأن حب رسول الله ﷺ، وعلم بعض ما تفضل الله به علينا برسوله ﷺ وقاية لنا من الله سبحانه وتعالى يحفظ الله بها سرورنا من أن يشوبه أمن المكر، أو يعتوره غيبة عن المكانة العبدية، فتزل قدم بعد ثبوتها،

أعوذ بوجهه العظيم من أن تكون نعمه سبحانه معينة على مخالفة وصاياه، ومننه سبحانه وتعالى داعية إلى الخروج من سور الأمن وحصن الحفظ، إنه مجيب الدعاء.

وكم أفسد الشيطان قلوباً ألم بها من الغرور بنوال النعم والزهو بالمنن، حتى أوهم المتمكنين أنهم بلغوا المبلغ الذى يسقط عنهم الواجبات، وصارت لهم المنزلة التى يكون لهم فيها ما يشاءون. ومن دسائسه أعاذنا الله منه، ما ورد فى كتاب الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الأعراف ١٧٥-١٧٦، إلخ.

وما فعل بموسى السامرى الذى رباه جبريل عليه السلام حتى بلغ من مكاشفة الأسرار مبلغاً صار له تأثير نفسانى يستعمل لإظهار الحق، فاستعمله لإظهار الباطل، وقصته مشهورة فى القرآن، ونظيره الذى وهبت له تلك المواهب فاستعملها فى إظهار الحق آصف بن برخيا، الذى أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل ٤٠، وقصته مشهورة.

ومن دسائس الشيطان فى تلبيس الحق بالباطل والباطل بالحق، ما أفسد به قلوب تلاميذ المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فإنه أتاهم فى صورة إنسان بعد رفع المسيح، وجلس يبكى معهم حتى أبكاهم، وقال: إنكم تجهلون قدر المسيح ولو علمتم قدره لسعدتم، فقالوا: من أنت؟ فقال: أنا تلميذه العارف به، فقالوا: عرفنا به، فقال: إنى سائلكم فأجيبونى، قالوا: سل، قال: من الذى خلق خلقاً من الطين فأحياه؟ قالوا: الرب، قال: فمن الذى يحيى الميت؟ قالوا: الرب، قال: فمن الذى يشفى الأكمه والأبرص؟ قالوا: الرب، فقال: تبصروا فإن المسيح هو الرب لأنه فعل ذلك كله، وكان القوم مجانين بحب المسيح، ومحترقين بفراقه احتراقاً أذهل عقولهم، فأصغى إليه أكثرهم، وتشبعوا بآرائه الفاسدة وعقيدته المضلة، وهم تلاميذ المسيح وأهل خاصته، وأنكر عليه قليل منهم، فالتفت إليهم وقال: أنتم أعداء المسيح وخصومه، أفتقولون كما قال اليهود: إنه ابن زنى! وتنزه الرب اليسوع المسيح، فبكوا من وقع تلك الألفاظ، فقال: إذاً من أبوه؟ فقالوا: أنت أعلم به منا، فقال: هو ابن الرب فاصغوا إليه وتلقوا عنه، وانقسموا وتفرقوا على أنفسهم، وأنكر رجل منهم، فحاوره لعنه الله حتى جعله

يقول: ثالث ثلاثة، وأمرهم أن يتفرقوا فى البلاد، فأفسدوا العباد وأضلوهم، وهم تلاميذ إبليس عليه لعنة الله، مع أن المسيح لم يرض لنفسه أدباً مع الله تعالى أن يكون هو المعلم الصالح، فغضب وقال: أنا لست المعلم الصالح المعلم الصالح هو الله.

وقد ورد عن بعض أئمة أهل الطريق، أنه عبد الله عشرين سنة، فى خلوة لا يخرج منها، مجاهداً نفسه أشد المجاهدة، حتى صفا جوهر نفسه، وبينما هو فى خلوته وإذا بالسقف رفع، فامتلأت خلوته أنواراً، فسمع منادياً يقول: يا عبدى فلان، فأصغى بكليته ولبى، فقال: إنى أبحت لك المعاصى، فأجابه مسرعاً: إخسأ يا ملعون لعنة الله عليك، فقال: إنى أهلكت أكثر المجاهدين بهذا، فكيف نجوت منى؟ قال نجانى الله بالعلم، قال: بين لى العلم الذى نجاك الله به قال: يقينى بأن الله تعالى لا يحرم شيئاً على لسان رسوله ﷺ ويبيحه لأوليائه، ففر إبليس لعنة الله عليه حزيناً، وكيف لا؟ وقد قال الله تعالى مخبراً عنه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الأعراف ١٦.

وهل تمكين أرقى من تمكين آدم عليه السلام فى الجنة، بعد أن صوره الحق جل جلاله بيده، وأسجد له ملائكته وأسكنه فردوسه؟ فتسلط عليه اللعين فأوقعه فى معصية الله، وأخرجه من دار كرامة الله، قال ﷺ فى الحديث الطويل: (والمخلصون على خطر عظيم).

أسأل الله أن يحفظنى وإخوانى المسلمين جميعاً وأولادى فى مقام البسط والسرور، من الشطح ومن لمة الشيطان الرجيم، إنه هو الحفيظ الواقى الرؤوف الرحيم.

ثالثاً الحرمة عند أهل التمكين فى مقام الشهود

إشراق أنوار حق اليقين فى مشاهد التوحيد بالتوحيد، لطوفاً بشهود غرائب القدرة، وظهوراً بشهود غرائب الحكمة، حتى لا يغيب عن الحكمة فتنمحى الأسباب فى نظره، ولا يحجب عن القدرة فيشوب توحيده شرك خفى، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان ٦٧، وقال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ الرحمن ٢٠، فإذا قويت مشاهد التوحيد فى مراقبة قادر، ولم يكن ثم البرزخ الحاجز، شهد سر عجائب القدرة، وغاب عن أنوار غرائب الحكمة، فخرج من الاعتدال، وتعدى وضع مسبب الأسباب، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ

أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة ١٤٣، وقال ﷺ: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى).

وفى الأثر: (عليكم بالنمط الأوسط) وقال ﷺ: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين).

فالحرمة فى مقام الشهود عند التمكين سابقة الحسنى أزلاً لأهل التمكين، التى يحفظ الله بها شهودهم من أن يمازجه أو يعارضه سبب، فتكون الأسباب والشئون مميزة للحضرتين، فيظهر بها حقيقة العبد، وأنوار الرب جل جلاله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران ١٠١، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت ٦٩، فمن كان جهاده فى الله هداه صراطه المستقيم وسبيله القويم، ومن كان جهاده لحظ خفى وهوى متبع، نكب عن الصراط واتبع هواه، فكان من الغاوين.

أعاذنى الله وإخوانى من الشيطان الرجيم، ومن الهوى المتبع ومن الشح المطاع، ومن الإعجاب بالرأى، إنه مجيب الدعاء.

فى ارتحالى أحرمت إحرام واجد ... حال حلى أحللت إحلال فاقد
حلى الوصل فيه حل وجودى ... وارتحالى فضل شهيد وشاهد
من ﴿أَلَسْتُ﴾ ارتحلت حل وجودى ... سورى الكون كادحاً فيه جاهد
من كيانى ارتحلت حلى مقامى ... فى فنائى عنه بقائى صاعد
ذاك حلى، وذا ارتحالى، مقامى ... بعد هذا اتحادى بالغير جاحد
فى اتحادى غيب، يحيط بى الوجه ... كأنى غيب لسر المشاهد
بعد غيبى الوجود حق يقين ... جملتنى عبودة فى المعاهد
عهد بدئى، وقلبه عهد معنى ... فى اجتلاء الأوصاف جل الواحد
وحدة عينت وجودى عهودى ... من أنا؟! العبد صنع رب ماجد
حلى الفضل، وارتحالى وصل ... مظهر للجميل جل الواجد

❊ ❊ ❊

مقام الزهـد

قـال الله تعـالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ الحديد ٢٣، وقال ﷺ: (إذا رأيتن الرجل أوتى زهداً فى الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة).

وتعريف الزهد عندهم هو ترك ما يشغل عن الله جملة، فالزاهد غير العارف مشغول بنفسه .. والزاهد العارف مشغول بالله عن نفسه، فالعارف زهد فيما سوى الله، فمن صحب الزاهد غير العارف عطره الخل والخردل، ومن صحب الزاهد العارف عُطر بالمسك والعنبر، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر ٩، ومن تكلم فى الزهد ووعظ الناس ثم رغب فى مالهم، رفع الله حب الآخرة من قلبه، وقال الإمام أحمد بن حنبل: (الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام، وهو زهد العوام، والثانى: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين).

وقد بينت لك الزهد بياناً وافياً فى كتاب "أصول الوصول" فى قسم علوم اليقين، وهنا أبين لك ما لابد منه من منازل السالكين.

الزهـد عند السالكين

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ النازعات ٤٠ - ٤١، وقال ﷺ: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه)، زهد المريد: أى أن يتناول الشئ لا لرغبة فيه ولكن لحاجة تدعو إليه.

والزهد قربة للعامة، وضرورة للمريد، وخشية من الله ورغبة فيما عنده للخاصة، فالمريد يترك الشبهة بعد ترك الحرام، ويحذر من المعاتبة، وتستنكف نفسه من النقيصة، وتكره مشاركة الفساق، فمن رغب فى الشئ وطلبه وادعى أنه زاهد فهو كاذب، ونعم هو زاهد ولكن فى الآخرة، وليس بمريد عندنا، وكم غر الشيطان مريداً فأوهمه أنه زاهد، فجمل

ظاهره للخلق، وقلبه معلق بالدنيا، يطلبها من حلها وحرامها، وإنما هى معاملة القلوب لعلام الغيوب.

الزهـد عند الواصلين

ترك ما زاد على الضرورة، حرصاً على فراغ القلب لمعاملة مقلبه، وعمارة الوقت بمحاب الله ومراضيه، ومسارعته إلى التحلى بحلة الأنبياء والأولياء والصديقين، ولأهل العزائم فى هذا المقام إشارات عالية، ترمى بهمة الواصل إلى قدس العزة والجبروت، رغبة فى الله وفناء عما سواه.

الزهـد عند أهل التمكين

هو لبه وخالصه، وهو إخراج الموجود من القلب، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، استصغاراً له واحتقاراً، ثم نسيان الزهد فى الزهد، حتى يكون زاهداً فى زهده، لرغبته فى مزهده سبحانه وتعالى، وهو أعلى الأحوال فى مقامات اليقين، لأنه زهد فى النفس فراراً إلى منفسها، ولديها تستوى الحالات عند الزاهد، ويواجه بالبهاء الجلالى والنور الجمالى، فيكون آنساً بالمعطى الوهاب المنعم المتفضل، راضياً عنه سبحانه مرضياً من الله جل جلاله.

عرف الكرام منازل الأصحاب ... فتواضعوا ذلاً على الأعتاب
مالوا عن العذال بل وعن السوى ... وتمسكوا بالزهد والآداب
وفنوا بمظهر حسن معشوق علا ... حتى عن القرناء والأصحاب
دهشوا بنور جماله وجلاله ... وبمظهر الأسماء فى الألباب
شهدوا الجمال من الجميل فحيروا ... والجمع فيه تحير الطلاب
فالكون نور للمكون جهرة ... والنور من مشكاته الوهابى
لا لوم إن باحوا بسر حقيقة ... فالكتم لى فى الجمع عين عذابى
شاهدت نور الحق فى وفى الورى ... والحق مخفى عن المرتاب
زدنى وحقك لوعة وحيراً ... فالسكر يامولاى عين صوابى

مقام الورع

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، وقال رسول الله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه).

الورع حال من الزهد وهو ترك الاستطالة فى المباح حذراً من الوقوع فى المكروه، والوقوف عند الواجب على المؤمن بحفظ جوارحه جميعاً تعظيماً للحق، والورع نهاية الزهد لأهل البداية، وبداية الزهد لأهل العناية.

الورع عند السالكين

ورع المريدين هجر الرذائل مرة واحدة، كبحاً لجماح النفس، واستكثاراً من الحسنات، واستزادة للإيمان، فيحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، استحياء من الله حق الحياء. والورع فى الكلام والرياسة أولى بالرعاية من الورع فى الذهب والفضة، فإن الذهب والفضة يبذلان فى تنفيذ الكلمة ونيل الرياسة. وأهم ما يسارع إليه المريد من الورع أولاً الورع فيما هو مقصود، لا فيما هو وسيلة، فإن المريد إذا تورع عن المقاصد سهل عليه التورع عن وسائلها. ومن تورع عن الذهب والفضة ولم يتورع من الكلام والرياسة، فليس من أهل الطريق.

للسالكين أحوال فى الورع

يدعوهم إليها كمال الإيمان بيوم الحساب، وتعظيم أوامر الله تعالى والعلم الصحيح المؤدى إلى العقائد والآراء الحقة. وقد بسطت أحوالهم فى الورع فى كتاب "تراجم الرجال"، وقد بلغ بهم الورع أن المريد كان يكره أن يستظل بظل جدار العاصى، أو ينتفع ليلاً بأنوار المصابيح الموضوعة فى الطرق للنفع العام، ويمتنع أن يشرب الماء من المجارى التى ظلم الناس فى حفرها، إلا لضرورة شديدة، وهذا من يقظة القلب والتحرز، تعظيماً لأمر الحق.

الورع عند الواصلين

هو توقى تعدى الحدود عند استعمال ما لابد منه، محافظة على كبح النفس والأخذ عليها، لتأنس بما لا يلائمها، وتفر من الدناءة واقتحام الحدود، وللواصلين فى هذا المقام أحوال، حتى قد يتورع الرجل عما لابُد له منه، حتى يكاد تزهق روحه إيثاراً لغيره، وأحوال الواصلين فى الورع، لو سمعها العاقل لحكم باستحالة حصولها.

كان الجنيد مسافراً مع تلاميذه، وفقدوا الماء فأشرفوا على الموت، فخرج رجل منهم يطلب الماء فوجد بَيْعة، فاستسقى صاحبها فأعطاه الماء، فطلب منه أن يبدأ بإخوته، فعجب الراهب، أن أحداً على وجه الأرض لا ينال هذا المقام، فأمره الراهب بإحضارهم، فلما حضروا دفع كل واحد منهم الماء لأخيه ليؤثره على نفسه، فأشفق الراهب عليهم، وملأ حوضاً صغيراً عنده وقال: اشربوا جميعاً فتناولوا جميعاً بأيديهم وشربوا.

أحوال الورع عند أصحاب رسول الله ﷺ

ففوق ما يتصوره المتصورون، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر ٩، ولولا أن هذه الرسالة موضوعة لبيان أسرار الصوفية لا أخبارهم، لبسطت من أحوالهم ما به تتضائل هم الأدعياء.

الورع عند أهل التمكين

هو التورع عما سوى الله، ولأهل هذا المقام أحوال نطوى بساطها، فإن الورع فيه ناتج عن مشاهد عين اليقين، لحقارة ما تركه، وعظمة ما رغب فيه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الحديد ٢١، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ البقرة ٤٥، فقد بلغ الورع بأهل التمكين، إلى أن يتورع أحدهم عن نفسه وحسه، إذا شام منهما دخان شتات الوقت، ولهيب التفرقة، عن استجلاء الأنوار لجوهر النفس، وقد بينت فى كتاب " أصول الوصول " جملاً من الورع، وفى كتاب " شراب الأرواح " فراجعهما إن شئت المزيد.

أخــاف وأرجــوا حفــظ رتبــة أولى ولكـنـنــى الـطـماع فى خـير مــوئل
أخـاف ذنـوبـى بل وأرجـوك سيـدى وأطـمع فى رشفــى طهــور المنــزل
أيـــارب جملنـــى بــأخلاقك التـــى بهـا أمنح الحـسنـى بتفصيل مجمل
مــسئ وخــطــاء أنــا فتــداركـن بعفــوك عبــداً يـسرن لى تــواصلى
تحققت ربــى قــابل التـوب غـافـراً فــأطـمعنــى آى بـمحـكمك الجلى
أجيب دعـا الداعـى وأعطيه ما يـشا فـسل مـا تشـا يـاعبـد فى حـال مقبل
ســألت مجيبـاً يقبل التـوب يعفـو عن خطـايـا مـسئ قـد يفـوز بـأكمل
أيــارب وف الــديـن وسع عـطــاءنــا بخـير نبــى بل بــأكـمل مـــرسل
بـأسمائك الحـسنى وبـالـذات قـدست تـنـزل لنـا بـسر عـطـايـا المـؤمل
أيـــــارب أولادى وكـل أحــبـتـــــى أنلنـا مـزيـد الفـضل خير التـنـزل
أمـتـنــا على الإسلام أجمل ميـتـــة لـنلحق بـالأخيـار يـاذا الـتفـضل
ولا تـشغلن قلبـى وجـسمـى بشـاغل بــدنـيـاى والأخـرى ورزقـى فــسهل
أيــارب واجعلنــى كنـوز غنــى بهـا سرور بـنـــى الإسلام فى كل مـــوئل
كـنــوز علــوم للمــريــديـن وصلــة بنيلهمــو الــزلفــى بعلم وأكـمل
مـن الكـشف من حق اليقين مـؤيـداً بـمحكـم آيـــات بـــسر المنـــزل

مقام التوكل والتفويض

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ المائدة ٢٣، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥ﴾ الطلاق ٣، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ التوبة ٥١ .

والتوكل هو طرح البدن فى العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعطى شكر وإن مُنع صبر، ورد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد، وهو خلع الأرباب وقطع الأسباب، مع إلقاء النفس فى العبودية، وإخراجها من الربوبية، ومقامات التوكل حقيقة لا يمكن ادعاؤها، وحال علىٌّ لا يتسنى لسالك تكلفه.

التوكل عند السالكين

التوكل عند السالكين تسليم الأمور كلها للوكيل، مع الطلب ومزاولة الأسباب، شغلاً لنفسك ونفعاً للخلق، وتخلياً عن الدعوى، فإن السالك فى بدايته قد يدعوه حال العلم إلى الشك فى الأسباب، فيتجرد منها، فيعود ضرره على الخلق، ويتمكن منه العدو فيغتر بنفسه، فيكون الأكمل له أن يتعاطى الأسباب، تخلياً عن تلك المهاوى، فإن النفس إذا فرغت من الأسباب، ولم تكمل تزكيتها، استولت عليها الحظوظ والأهواء، والدعوى الباطلة، فإذا زاول السالك الأسباب، همدت نار النفس، وصغرت أعمال الطاعات فى عينه، لم يجد الشيطان منفذاً يدخل عليه، وفى معاطاة الأسباب للسالك مزج لشرابه، حتى لا يخرج عن الاعتدال، فإنه بمزاولة الأسباب يختلط بالعامة، مما يجعله على الطريق الوسط، لا يتجاوز حد الحكم، ولا يتغالى فى الفهم.

التوكل عند الواصلين

التوكل عند الواصلين إسناد الأمور كلها إلى المالك سبحانه، واليقين الحق فى التعويل على وكالته جل جلاله مع إسقاط الطلب، والنظر بعيون اليقين الحق إلى المسبب جل جلاله

نظراً يجعله يشهد قوته التى هى فوق الأسباب، غاضاً بصره عن الأسباب، مسارعاً إلى التحقيق بحقيقة التوكل، لتهمد نار بشريته، وتنمحى فى عينه منزلة نفسه، بالإقبال بالكلية على الحق جل جلاله، حتى يكون كالطفل الرضيع أمام والدته الشفيقة الرحيمة، ولا يتحلى بحلل التوكل الجميلة، إلا من يتنزل للحق بتلك المنزلة، فلا يجد ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، كما أن الطفل الرضيع لا ملجأ له فى كل نازلة إلا أمه، ولا يشهد لنفسه معيناً إلا هى، ولديها يزول شرف النفس الذى يعتروها بمزاولة الأسباب، فتصغر فى عينها، وتشم طيب لا حول ولا قوة إلا بالله، ويفرغ القلب لمراقبة الرب، ويستريح البدن للمسارعة إلى القيام بما أوجبه الحق جل جلاله، فإن الواصل يجاهد نفسه أن يصبر مع الله تعالى حتى يتحقق بمعنى العبودية سراً وعلناً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ الزمر ٥٤، فإذا لم يسقط الطلب كان له شغل بتدبير نفسه، وإذا لم يغض الطرف عن السبب لم تسكن نفسه إلى المسبب جل جلاله، لم يشم شذا عبير التوكل.

التوكل عند أهل التمكين

التوكل عند أهل التمكين تسليم النفس للوكيل جل جلاله بعد علم اليقين بحقيقة التوكل، والجهاد الأكبر فى الخلاص من التوكل، فإن نظر إلى نفسه متوكل، نقص عند أهل التمكين فى التوكل، لشوب التوحيد بشهود عمل نفسه، وكيف يكون متوكلاً من شاب توحيده جهل بوحدة الأفعال؟! وأهل التمكين يردون الشئون إلى وحدة القضاء والقدر، ويردون الأسباب إلى واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ولا يكمل التوكل فى هذا المقام العلى، إلا بعد اليقين الحق، لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ البقرة ٢٨٤، وقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يونس ٦٦، وقوله تقدست ذاته: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المائدة ١٢٠، فيشهد بعين اليقين أن العوالم كلها مملوكة لله، وأنه سبحانه وتعالى ملك عزيز، لا يشاركه فى ملكه مشارك، بل هو القاهر فوق عباده، ومتى تحقق علماً يقيناً بهذا المقام صح توكله، وتحقق حقاً أن الحق – جل جلاله – هو مالك الأشياء وحده، ومن نازعه فى صفة من صفاته قصم ظهره، ولديها يحسن توكله على الله، وكثير من أهل التمكين مات ولم يشم عبيره، فضلاً عن أن يتناول طهوره، وإنما يتوكل حق التوكل على الله

من كان مؤمناً، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ المائدة ٢٣، وقد بين الله لنا ما يتفضل به على العبد المتوكل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥ﴾ الطلاق ٣، وأشار جل جلاله بأنه سبحانه يتولى من توكل عليه، فيكفيه ويشفيه ويواليه ويعصمه من الناس ويحميه، قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ الزمر ٣٦.

فسارع أيها الأخ المسترشد إلى التنزل لربك العلى، حتى يفيض عليك جماله الجلى، وإن قهرتك نفسك فلا تحرم أن تكون لله كالطفل لأمه، فيكون لك أشفق وأحن من والدتك، ومن لم يستطيع أن يتنزل إلى رتبة الطفل أمام ربه الرؤوف الرحيم، فالأولى له ألا يقول: إنى متوكل، فإن الله مطلع على سويداء القلوب، وهو سبحانه وتعالى علام الغيوب، والتوكل عند أهل التمكين يجعلهم يفرون من الكونين إلى المُكون سبحانه بعد تحققهم بأنه أولى بهم من أنفسهم، وكيف لا يتحققون بتلك الحقيقة، وقد نزلوا إلى العدم البحت، وشهدوا المصور البديع الخلاق الرؤوف الرحيم، شهادة أفنتهم عن وجودهم المنسوب إليهم بوجودهم الحقانى، فشهدوا الشئون التى تجرى علماً بجوراحهم المجترحة، بتقدير الله وتدبيره وقدرته، ففروا من أنفسهم إلى منفسها، وأسلموا وجوههم لله رب العالمين، قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الأنعام ٧٩، وقال خطيب الأنبياء ﷺ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ هود ٥٦.

فالسالك إذا ترك الأسباب ضل، ولابد له منها، والواصل إذا توقف عند الأسباب زل، والأولى له التجرد منها، والمتمكن عند شهود الحق لا تشغله الشئون عن مُنشئها، ولا الكائنات عن مُكونها، فهو فى التجارة والبيع مع الله تعالى لأنه مع المُسبب جل جلاله وإن تخلى عن الأسباب فالمُسبب جل جلاله معه، قال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ النور ٣٧.

للمتوكل على الله أنوار، تواجهه مع الوكيل العلى سبحانه، تجعله منعماً بمعانى صفات الجمال الإلهى سراً وعلناً، مبتهجاً بوكيله القوى ظاهراً وباطناً، وليس هذا مقام دعوى.. والله أسأل، يجملنى، وأهلى وإخوانى، بجمال المتوكلين، ويلحقنا بهم، إنه على كل شئ قدير.

* * *

التفويض

قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ غافر ٤٤.

والتفويض رد الأمور كلها للولى الحكيم القادر، والرضا بأحكامه، وهو فوق مقام التوكل، لأن كل مفوض أمره إلى الله متوكل، وليس كل متوكل مفوضاً أمره إلى الله تعالى، والتفويض ليس بعبارات تنطق بها الألسنة، ولكنها حقائق متجلية للقلوب، مواجهة للسرائر، قاهرة للجوارح، فالقول قسط اللسان من التفويض، ولكل عضو من الهيكل الإنسانى قسط منه، فللقلب الطمأنينة بمن فوض الأمر إليه، وللنفس السكون إلى منفسها، وللسر استجلاء معانى الأسماء بحقيقة مقتضياتها، وللجسم الاستسلام للولى الذى إليه يفوض الأمر، وإليه يوجه الوجه وإليه يسند الظهر، ومن قال تلك الكلمات، فأخذ من التفويض قسط اللسان، وأهمل ما لكل جارحة من جوارحه من التفويض، كان كاذباً فى دعواه.

والتفويض فوق التوكل لأنه يكون حال السبب، وقبل السبب وبعد السبب، والتوكل لا يكون إلا بعد السبب، ولهذا كان التفويض ألطف وأرق وأسمى من التوكل، وأصفى على السالك، بل الواصل من سريان النفس فى الجسم.

ومتى تناول طالب الله تعالى طهور التوكل بملاحظة الأسباب، وتمكن فى هذا المقام، تميزت أمام سره الحضرتان، ثم تجلت كل حضرة بكمالاتها، فشهد أن كمال رتبته العجز والذل والفقر والعدم والاضطرار، وأن كمال رتبة الحق القدرة والقوة والغنى، فأسلم الأمر كله لوليه، وفوض جميع أموره إلى الله يقيناً حقاً.

فالسالك يرى بالتفويض أن الحق جل جلاله يملك كل شئ، ويتحقق بأنه لا يملك إلا الاستطاعة قبل العمل، فيدوم خوفه، ويزول يأسه فى المعونة، وتنمحى ثقته بالنية، ولذلك فإن الله جل جلاله قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، مع أن العبادة مقصد، والاستعانة وسيلة، فقدم اختصاصه بالعبادة سبحانه قبل اختصاصه بالمعونة، لينبه العبد إلى كمال التخلى عما يشوب العبودة الخالصة، ثم بين له أنه سبحانه وتعالى مختص بالمعونة، لينبهه إلى أن يتجافى عن شهود العمل بنفسه لأنه مكر بالعبد، لأن العبد إذا شهد عملاً بنفسه كان

مشركاً، ولا يقبل الله عمل مشرك، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ الفرقان ٢٣، وإذا شهد العمل لنفسه فى سيره أيضاً، حصل له اليأس والقنوط من رحمة الله، وذلك والعياذ بالله كفر، كيف لا ومن وقع فى معصية وشهد العمل منه لا يذوق للتوبة حلاوة، ولا لنيل المغفرة لذة، لأن شهود المعصية منه به ذنب أكبر من المعصية، حتى يستنشق شذا عبير التوحيد، ويشم عرف التفويض، فيرجع بتوفيق الله إلى الله الذى قدر عليه المعصية، مستغفراً، نادماً فيغفر الله له، وإذا نسب العمل لنفسه ووثق بالنية، لأنه يظن لجهله أنه نوى بعمله هذا الإخلاص لله، وكيف يخلص لله مشرك، يرى غير الله فاعلاً، ويجهل أن الحول والقوة والتوفيق من الله؟ ولديها تنزعج نفسه التى تزكت من الثقة بالنية، وتسارع إلى الثقة بالله، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١٣٣.

فوض الأمر للولى الكريم ... لا تفكر فى شأنك المقسوم
وكل الأمر للرءوف تعالى ... ثم أسلم له بقلب سليم
وأنب مخلصاً إليه بصدق ... تعط منه منازل التكريم
كن له العبد راضياً إليه بصدق ... تقتضيها الأسما تفز بالنعيم
عود المخلصين كل جمال ... يمنح الخير بالجمال المقيم
يجهل العبد قدره ليس يدرى ... فعليه الرضا بأمر العليم
من يكن ربه العلى تعالى ... يسع دوماً على الصراط القويم
موقناً أنه رءوف ودود ... واسع الفضل بالعطاء العميم
يعط من أسلموا له الخير دوماً ... ويوالى بالجود والتعظيم
يشهدون الجمال فى كل شئ ... كيف لا وهو بالولى الحميم؟!
علموا ربهم رءوفاً عطوفاً ... ثم حنوا إلى المجيب الكريم
يسألون الجمال وهو قديرٌ ... بلسان صاف وقلب سليم
علموه أولى بهم من نفوس ... بل من المال أو صديق حميم

لم يروا غيره مريداً قريباً — فاستجابوا له نعم بالرسوم

واستعاذوا بوجهه من جلال — ومن الشر أو ملم أليم

ومن الجهل والمعاصى استعاذوا — ودواعى الهوى وشر الرجيم

سألوه المزيد من كل خير — فأجاب الدعا بفضل مقيم

يا إلهى ياواسع الفضل إنى — أرج منك الرضا ونيل النعيم

وجمالاً يدوم لى ولأهلى — ولكل الأحباب بالتكريم

أنت نعم المولى أنت وكيلى — أنت حسبى ياذا المقام العظيم

لك وجهت كل قلبى وروحى — أرج حفظى من حاسد ولئيم

وقضاء الجمال فى كل شأنى — ووصولى إليك غير ملوم

بمقام المحبوب خير البرايا — والحريص الرؤوف بل والرحيم

قد توجهت عائذاً بك ربى — وبسر قد جاء فى ﴿حمٓ﴾

فأعذنى وارفع مقامى وقدرى — وصلاة على الرءوف الرحيم

وعلى آله الكرام وصحب — وعلى آله الكرام وصحب

الثقة بالله تعالى

الثقة بالله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المائدة ٥٥، وقال ﷺ: (اللهم إنى وجهت وجهى إليك، وأسندت ظهرى إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت)، وفى الحكمة الثقة بغير الله عجز.

والثقة روح التوكل، وخالص التفويض، وهى تحقق بعلم النشأة الأولى، تحققاً يجعل الواثق بالله على يقين حق أن الله تعالى أولى به من نفسه، لأنه هو سبحانه أوجده من العدم، وأمده بما به حفظ حياته وبقائه منعماً، ولا شريك له سبحانه فى إيجاده وإمداده، بل نفس أعضائه العاملة، وجوارحه المجترحة بإمداد الله وقدرته وقيوميته، فإذا بلغ العبد المؤمن هذا المبلغ من علم اليقين، أو عين اليقين، بلغ منزلة الثقة بالله تعالى، فاطمأن قلبه بذكره، وسكنت نفسه إليه سبحانه، وكان الله جل جلاله أقرب إليه من حبل الوريد، وشهد الحق سبحانه.

وأقل مشاهد المؤمنين فى الثقة بالله، أن يرى نفسه طفلاً، وأن يرى الخالق جل جلاله له أباً وأماً، فتقوى ثقته بالله جل جلاله فى جميع شئونه، كما ترى الطفل يلعب غير مفكر فيما يلزمه لثقته بأبيه وأمه، فإذا جاع أو عطش أو خاف رجع إليهما، واثقاً بنيل كل رغائبه، ودفع كل أذية عنه، غير شاك ولا مرتاب فى ذلك، ومن لم يكن مع الله كالطفل مع والديه فليس من أهل الثقة بالله تعالى، والطفل مع والديه مثل ضربه الله للمؤمن، ليتحقق بتلك المنزلة من القرب من الله تعالى، ولأهل الثقة بالله تعالى مشاهد أُنس بالله تعالى ومنازلات بهجة به سبحانه فى فادح الأمر ومؤلمه، قال الله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ البقرة ٢٧٣، ولأهل الثقة مشاهد سجد العقل دون فنائها، بها إعلاء كلمة الله تعالى وتجديد سُنن رسول الله ﷺ، تبلغ بهم مبلغاً تقع فيه العين على العين، بعد محو البين من البين ثقة به جل جلاله.

برهـان ذلك

قـول الخليل عليه الصلاة والـسلام لجبريل عليه السلام عندمـا قال له: ألك حاجـة؟ فقال له: أما إليك فلا، ثقة بالله الذى حـجب الأواسط به سبحانه عن قلب خليله، حتى صار كأنه لا بين بينه وبين ربه جل جلاله، وشمة من عبير الثقة يدوم بهـا بسط العارفين، وبهجتهم ثقة بالمولى القوى المعين، وكمال تصديق بوعده وإخلاص فى التفويض له سبحانه.

ولما كان نـزول الثقة بالله تعالى من أعلى مقامات أهـل التفويض، وكان لابد لكل مريد لله تعالى من أن يكـون له قسط من الـتوكل والتفـويض، ولا يكمل مقـام التوكل والـتفويض إلا بشميم هذا العبير، حتـى يكون التحقق بهذين المقامين تحققـاً عن مشاهدة، لا عن علم، فإن العلم قد يتـسلى عنه من حصله عنـد فادح الأمر وعـظيمه، فإن تلـك المقامات العلـية ليست علماً فقط، بل هـى عملية أكثر منهـا علمية، وأهل التوكل والتفـويض والثقة لا يظهرون تلك المقـامات علـماً، فإن ذلك يـشير إلى التجـمل للخلق، ولكنهـا تظهـر منهم قهـراً عنهم عملاً، حتى يـتلقاها المريـدون عنهم بالعمل، لا بـالعلم فإن أهل الله الصالحـين يسارعون إلى تجمل بـاطنهم لـمولاهم جل جلاله بتـلك المعانـى، ثم تظهـر منهم قـهراً عنـد المقتضيـات، فيتلقـاها المـريدون عـملاً، فتنقـش حقائـقها على جـواهر نفـوسهم، لمـا أودع الله من المحبـة فى قلوب المـريدين مـنه سبحانه للـمرشد الكـامل تراهم يسـارعون إلى التـشبه به، ولو تعـاصت عليهم قـواهم النفسانية، وضعفت عن القيام بتلـك الأعمال العظيمة أبدانهم الآدمية، ولكن جواذب المحبة تجذبهم إلى تحمل ما لا قبل لهم به، تشبهاً بمحبوبهم الذى هو إمامهم، المسارع بهم إلى حضرة القدس الأعلى وهى سُنة ماضية.

ومن قرأ تـاريخ العرب قبل إشراق شمـس رسول الله ﷺ وقرأ تاريخهـم بعد انبعاث تلك الأنوار، وسطوعها على الآفاق، يعلم قدر الفضل الإلهى الذى مَنَّ الله به على عباده، فجعل على الأرض مـلائكة فى صـور أناسـى، لا بل على الأرض أرواحـاً قدسـية فى هـياكل آدمـية، تطـوف حواليها الملائكـة، لتقتبس أنـوار القدس من مثل المـشكاة المحمديـة، وصور الحقيقة الأحمدية، وأن الفـضل العظيم بيـد الله يؤتيـه من يشاء، والله ذو الـفضل العظيم، ولـولا الثقة بالله تعالى لعجـز العالم أجمع عن أن يقوم بعـمل فرد واحد منهم، ولا تعجـب فالمسلمون الآن

قريباً من خمسمائة مليون لا يساوون رجلاً واحداً – أستغفر الله – ولا يساوون صبياً ممن كانوا فى عصر رسول الله، أو فى عصر التابعين لهم بإحسان، ذلك لأن الثقة فُقدت من قلوبهم، وبالثقة نيل خير الدنيا والآخرة، بل ونيل ما فوق ذلك من نيل رضوان الله الأكبر، ومواجهة وجهه الجميل، والأُنس بسماع كلامه المقدس منه سبحانه.

ولو علم المسلم بمقدار ما يناله بالثقة، لبذل نفسه النفيسة عليه، لينال شمياً من الثقة بالله جل جلاله، وكفى المسلم الواثق بالله مجداً فى الدنيا والآخرة، أن يكون الله أقرب إليه من نفسه التى بين جنبيه، وأن يكون له من الله ما يشاء فى الدنيا والآخرة، فيفنى عن تلك المنزلة بالله جل جلاله، وإعظاماً لجنابه العلى، عن أن يلتفت إلى شأن من الشئون، عن مشئن الشئون القريب، المجيب، العلى، العظيم، سبحانه وتعالى، ومن التفت عن الله بضعف الثقة به، وهو الفقير المضطر، كيف لا يلتفت عنه سبحانه وهو العلى العظيم، الغنى عنه؟ وليس التفات الله تعالى عن العبد بسلب ماله، ولا بفقد عافيته، فقد يلتفت الله عن العبد فيستدرجه، وإنما التفات الله عن العبد حرمانه من الثقة به سبحانه ومن التوكل عليه، وتفويض كل الأمور إليه، وحرمانه من الاستقامة، نعوذ بالله من الالتفات عن الله، ونحن المضطرون إليه، ونسأله سبحانه وتعالى أن يناولنا طهور الثقة به، ويجملنا بحُلل التوكل عليه، وتفويض كل الأمور إليه، إنه مجيب الدعاء.

الثقة عند السالكين

يقين يباشر باطن القلب، يجعل المريد يشم عبير التوحيد، برجوع الشئون كلها إلى وحدة القضاء والقدر، فيحصل له اليأس عن معارضة مقتضيات القدر، ويقوى اليأس حتى يعقد عن نزوع نفسه إلى منازعة الأقسام، فيصفو وقته وحاله، ويتخلص من سوء الأدب بمعنى الإقدام على ما لا يليق أن يعمله موحد، فإذا حصل له اليأس مما سوى الله ومن سواه، وذاق حلاوة الرضا عنه سبحانه بعلم أنه سبحانه وتعالى أولى به، وأعلم بخيره من نفسه، ويترك المنازعة فى شئونه، وسوء الأدب بالإقدام على ما لا يليق، تحققاً بالثقة بالله تعالى فى نزله، فحمل على نجب العناية، وأنس بشهود الحكمة فى كل شأن من الشئون.

الثقة عند الواصلين

تحقق بشهود التوحيد، تحققاً يجعل الواصل موحداً، بمعنى أن يشهد الأسماء والصفات فى كثرتها عدداً لواحد أحد، ولديها يحصل له الأمن قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢، والأمن عندنا هو أمن يحصل به سكون النفس إلى الحق جل جلاله سكوناً يجعلها لا تخاف فوت ما قدره جل جلاله، ولا تغيير ما قضاه سبحانه، وبهذا الأمن يفوز الواصل بروح الرضا عن الله جل جلاله فى مقام اليقين بالتوحيد، أو بشهود أنوار واحد، منزه عن المثيل والنظير والشبيه فى مقام عين اليقين، أو يتجمل بحلل الصبر فى مقام علم اليقين، وليس دون تلك المنزلة منزلة للواصل، فمن حرم الرضا، أو حرم التحقق بالتوحيد، أو حرم الصبر، فهو من عامة الناس، واسم الوصول له مجاز.

وفى هذا المقام يكون الأمن بمشاهدة وحدة القضاء والقدر، ولا ينازع هذا الأمن الخوف من مقام الرب جل جلاله، لأن أهل الوصول، خوفهم خوف عظمة وكبرياء، وشوق محرق إلى الحق، وإطلاق لجنابه العلى عن أن يسأل عما يفعل، فيكون الواصل بين أمن من خوف تغيير ما قدر عليه، فيحتال لنيل ما فاته، أو يفرح لما أدرك لفنائه عن وجوده الباطل بالوجود الحق، وانبلاج أنوار معانى الصفات مشرقة فى الآيات، وإشراق أنوار الآيات فى نفسه وفى الآفاق، فيطمئن من تلك الحيثية، وتكون خشيته ورهبته وخوفه من المقام، لا من سر القدر، وتمتزج تلك المخاوف بخالص شراب المحبة، فيعتدل الخوف والحب فى سور الأمن، لأنه لو خاف فى شهود الشئون كان خوفه من غير ربه، وقد يلتبس على من لم يذق شراب المعرفة، الخوف من الشئون بالخوف من المقام، فيمزق الخوف أغشية قلوب قوم خوفهم من النار، أو من عذاب القبر، فيأمنون من جهة الخوف، ويخافون من جهة الأمن، وهذا مقام خفى لا يميز المنازل فيه إلا أهل الله الصالحون، الذين يفرون من الكونين إلى المُكون سبحانه وتعالى، قال الله تعالى فى وصف ملائكته: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ النحل ٥٠، والملائكة أرواح زكية طاهرة، فى حصون الأمن من حصول العذاب أو الفتنة، ومع ذلك فإن الله تعالى أثنى عليهم بالخوف منه جل جلاله مع أمنهم، فالأمن فى هذا المقام لا يقتضى عدم

الخوف، ولا يقتضى مخالفة الأمر، لأن القيام بالمأمورات فى هذا المقام مواجهة خاصة، تتروح بها أرواح أهل القرب فى مقامات القرب، قال ﷺ: (روحنا بالصلاة يا بلال)، وقال ﷺ فى الحديث: (وجعلت قرة عينى فى الصلاة).

أطلت فى هذا الموضوع، تنبيهاً لأهل شهود هذا النور، خشية عليهم من أن يروا هذا الأمن مقتضياً لترك الخوف من المقام العلى، أو لترك العمل بالأمر، وأنه لم يلاحظ كثير من الرجال تلك الملاحظات، لأن زمانهم كانت الحكمة لا تُباح إلا لمن تزكت نفوسهم، وصغرت الدنيا فى قلوبهم، ورغبوا فى الآخرة، لا للآخرة بل لأن الله رغبهم فيها، فرغبوا فيما رغبهم الله لا فى بهجتها وزينتها. فعلى إخوانى – حفظنى الله وإياهم من الجهل فى هذه المقامات – أن يزنوا مشاهدهم بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ وهَدْى الأئمة الهداة، فإن وضحت الحجة واتضحت المحجة، شكروا الله وأقبلوا بحول منه وقوة، وإلا رجعوا إلى الحق، فإنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

الثقة عند أهل التمكين

يقين حق، لأن الحق جل جلاله هو الأول الأزلى، وأنه سبحانه هو الخير الحقيقى أولاً وبالذات، لا خير إلا هو، يقيناً يحفظه الله به فى شئونه واعتقاده من المحن التى تعتور أهل التمكين فى تمكينهم بالتلوين، فتنزع نفوسهم إلى قصد غيره سبحانه، مما يخفى ضرره عليهم، لأن قصد غير الحق حجاب عنه سبحانه، ولو كان ذلك المقصود رغب فيه الحق جل جلاله، اللهم إلا إذا كانت الرغبة فيه رغبة فيما رغب الحق جل جلاله فيه، لا لذاته، حتى يكون مقصوداً، فإن قصد غير الحق ولو كان مقعد صدق حجاب قاطع عن الحق، وإنما هى رغبة يقصد بها الحظوة بالحق، والقرب منه لأنه ستره، وتعالى الله عن أن يُدْرَكَ أو يُرَى مكافحة، إلا فى المظاهر التى أظهر جماله العلى فيها لينعم عيون القلب، وأرواح من أحبهم برؤية جماله العلى، ونوره البهى، وسره الجلى، سبحانه، ثم يتخلص من أن يتكلف ليحتمى بالتكلف، لأن أهل التمكين غرقى فى شهود التوحيد بخالص التوحيد، ومن النزوع إلى التدرج على مدارج الوسائل، حتى يصفو السر للمواجهة، وتزكو النفس للمشاهدة، ويطمئن القلب، ويتلقى العقل الذى يعقل عن الله، فتتجلى تلك المعانى كلها بحلل الثقة

بالله تعالى، بالتخلى عن تلك الظلمات التى تغشاها، وهنالك يفوز المتمكن، بأن يكون قد استجاب لله فيستجيب الله له، وأطاع الله تعالى فيطيعه الله سبحانه، ومن استجاب الله له وأطاعه، لا تعلم نفس ما أخفى له.

ولأهل الثقة بالله تعالى أحوال علية، تنبئ عن مقدار الشهود الذى يجعلهم يبذلون النَفْس والنفيس ثقة بالله تعالى، ومسارعة إلى نيل رضاه سبحانه وتعالى، ورغبة فيما عنده، فترى أنفاسهم عامرة بذكر الله، وقلوبهم وجلة من الله وأنفسهم مبذولة فى سبيل الله، ولولا الإطالة لذكرت لك من أحوالهم وأعمالهم ما لا يتصوره عقل عاقل أن يحصل من إنسان، ولكنى أحب أن تقرأ تاريخ أصحاب رسول الله ﷺ مع رسول الله ﷺ وتزن نفسك بهذا الميزان، ثم احكم بعد ذلك على نفسك، أمن أهل الثقة بالله تعالى أنت أم لا؟ وتصور ما تحملوه عليهم السلام من فادح الشدائد، وما بذلوه لله سبحانه وتعالى حتى أخبر أنه سبحانه يحبهم ويحبونه، وأخبر سبحانه أنه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ المائدة ١١٩، والأمر سهل على من سهله الله عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ البقرة ٤٥.

أسأل الله تعالى أن يمنحنى وأهلى وإخوانى وأولادى، حسن الثقة به جل جلاله، وأن يعيذنى وإياهم جميعاً، بوجهه الجميل من فتن الدنيا والآخرة، وأن يواجهنا بوجهه الجميل مواجهة يدوم بها أُنسنا به سبحانه وتعالى، وفرحنا بفضله ورحمته، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ما اشتغالى وقد ضمنت شئونى ... واهتمامى بلازم التكوين
بعد قسم من واسع الفضل معطٍ ... وعطاء من منعم مضمون
ما التفاتى وأنت أولى بنفسى ... يا إلهى إلى الدنئ المهين
ذا لجهل أعوذ بالله ربى ... من دواعى الحظوظ بعد اليقين
أنت قدرت لى قبيل وجودى ... كل قسمى فما الذى يلوينى؟!
ذا لأنى عبد ضعيف وشأنى ... يقتضى العون منك بالتمكين
أنا عبد لا حول لى يا إلهى ... حصننى بحصنك المأمون
وأرحنى بسابغ الفضل ربى ... وبحلل الرضا ونور مبين

أعطنى وسعة وعزاً ونصراً ... وجمالا أقوى به فى دينى
رضنى عنك بالعطايا إلهى ... أشهدنى سر الخفا بالعيون
وأرحنى من العنا باهتامى ... وبطلبى للرزق فى كل حين
يسرن لى المقسوم من غير كد ... سهلنه للعائل المسكين
وأذقنى حلاوة القرب ربى ... آنس العبد بالجمال المصون
طهر القلب من هوى وحظوظ ... واملأنه من نور حق اليقين
وأكرم الأهل والأحبة ربى ... بدوام التيسير والتحسين
وبحفظ من الهموم إلهى ... ومن الضر والعنا والهون
وارم كل الأعدا بسهم انتقام ... وأرحنا من كيدهم بالحصون
واشرح الصدر يا إلهى بفوز ... وقبول بجاه طه الأمين
صلوات عليه فى كل نفس ... أحظى منها بأن تراه عيونى

❊ ❊ ❊

الباب السادس عشر

الرضا

الفوز بالرضوان الأكبر

قال الله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ الرحمن ٦٠، فمن أحسن إلى نفسه بالرضا عن الله، أحسن الله إليه بالرضا عنه، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ البينة ٧-٨، فالإيمان هو التصديق، واليقين الحق أنتج مسارعة الموقن لعمل الصالحات، تصديقاً لأوامر الحق وخشية منه سبحانه ورغبة فيما عنده، فينال ثناء الله لأنه خير البرية، ويفوز برضوان الله عنه، وبمواهب الفضل التى تجعله راضياً عن الله، وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ التوبة ٧٢، فأخبر الله جل جلاله أن رضوانه أكبر من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، ومن المساكن الطيبة فى جنات عدن، وهذا الرضوان الأكبر لا يناله إلا أهل الذكر الأكبر، والذكر الأكبر أن يذكر العبد ربه حاضراً معه مشاهداً لجماله العلى وجلاله.

الرجوع إلى الله عين الرضا عنه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ الفجر ٢٧-٣٠، والرجوع قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة، ومن لم يرجع إلى ربه فى الدنيا لا يحسن رجوعه إليه سبحانه يوم القيامة، والرجوع إلى الله فى الدنيا يكون بالتوبة والإنابة والندم على ما فاته، واستبدال قبيح الأعمال بحسنها، راضياً عن الله فى رجوعه فى الدنيا قبل الآخرة، مرضياً منه سبحانه داخلاً فى عباده الصالحين، سر قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ الفاتحة ٦-٧، باعتقاد عقيدتهم والعمل بعملهم والتخلق بأخلاقهم، داخلاً فى جنة شهود التوحيد الذى يجعل العبد واثقاً بالله متوكلاً على الله، مفوضاً جميع أموره إلى الله، معتصماً بالله صابراً لله وبالله وفى الله راضياً بالله وعن الله، ولديها يظفر بهذا الفضل العظيم يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الحجرات ١١، لأنهم ظلموا أنفسهم بعدم الرجوع إلى ربهم فى الدنيا، ووقوفهم عند أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ الإسراء ٧٢، وقيل: إن المؤمنين لا يموتون، ولكن ينتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، لأنهم خالفوا أنفسهم مسارعين إلى موضع رضوان الله، فماتوا بالإرادة، لأن رضاء الله لا يتحقق إلا لمن لا مراد ولا حظ ولا هوى ولا أمل ولا طمع ولا رغبة له فى غير ما رغب الله فيه، ولا يخاف غير مقام ربه ولا يخشى إلا ربه، لتحققه حق اليقين بأنه لا إله إلا الله، وانبلاج أنوار الأسماء والصفات الإلهية له فى كنز لا إله إلا الله، فيتحقق بأنه كما أنه لا إله إلا الله، لا منعم إلا الله ولا متفضل إلا الله، إلى آخر أسمائه الحسنى.

مجمل الرضا: مسارعة العبد بحول من الله وقوة وتوفيق إلى القيام بما أوجبه سبحانه، وبما

سنه سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وبما رغب فيه أئمة الهدى، مهما كان فى ذلك من كلفة على النفس وألم، تاركاً كل ما نهى الله عنه بعزيمة صادقة مهما كان فيه من لذة للنفس ونزوع إليه فرحاً بإقامة الله له وعنايته به، شاكراً الله على توفيقه.

الغضب على النفس عين الرضا عنه سبحانه

ثم الغضب على نفسه، ومجاهدتها أكبر المجاهدة إذا تعاصت عليه ساخطاً عليها، إرضاء لله ورضا عنه سبحانه، بما حكم وشرع وكلف وأمر، فيكون الغضب على النفس وسخطها ومجاهدتها غضباً عليها لله ورضا عن الله فى الحقيقة ونفس الأمر، وليس من رضى عن نفسه بلقسها ورعونتها وميولها إلى المساخط، وبطئها عن المسارعة إلى الخير براض عن الله، بل هو راض عن نفسه، وراض بمقت الله له وذمه إياه وتشنيعه عليه، ومن رضى بذلك فقد أعد نفسه للنقمة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، ولا يتحقق العبد بالرضا إلا إذا بذل الجهد فى مجاهدة نفسه طاعة لله فيما يرضيه، وألا يرضى بمعصية الله ومخالفة أمره، ثم يتجاوز الأدب فيقول: أنا راضٍ عن الله بما أقامنى فيه جدلاً منه، فإن الله يقيم من يكره فيما يكره، ليكون حكمه عليه يوم القيامة بالعذاب عدلاً منه سبحانه، وهو الحكم العدل، ويقيم من أحب فيما يحب، ليمنح من أحبهم مزيد فضله فى الدنيا والآخرة، والله ذو الفضل العظيم.

فقضاء الله على العبد بالمعصية عدل منه سبحانه، واعتقاد العبد أن ذلك عدل من الله لا يجعله يرضى عن نفسه بما هو فيه من سوء الأعمال وقبيحها، ظاناً أنه يحسن عملاً بقوله: أنا راضٍ عن الله فيما قضى وقدر. أعوذ بالله من سابقة السوءى، هذا ما يتعلق بالرضا عن الله فى قسم أحكام الله وتكليفه لعبيده.

الرضا عن الله فى جريان قضائه وقدره

وأما الرضا عن الله فى جريان قضائه وقدره، فوقوف العبد عند حد العبودة معتقداً أن ذلك من الله، وأنه سبحانه له فى كل شأن من شئونه حكمة، وأن تقديره كله خير لعبده المؤمن ما دام لم يسببه بمعصية أو مخالفة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ البقرة ١٩٥،

وقال ﷺ: (اعقلها وتوكل). فإن سوء القضاء وفادح البلاء لا شك أنه يؤلم نفوس الصديقين، الذين بلغوا أرقى مقامات الرضا، لأن العبد عبد لا يقوى على تحمل جلال الله، ومن ظن فى نفسه ذلك فقد ضل وغوى، وليس الراضى من لا يحس بألم القضاء، إنما الراضى من يتألم ويحس، ولكن تلقاه ساكن النفس إلى الله مطمئن القلب بالله، معتقداً أن ما دفعه الله عنه أعظم مما نزل به، أو منتظراً سريع إغاثة الله له أو مراقباً أنه عبد وأن ربه هو المبلى، وأن قبول العبد لبلاء ربه مع فادح الآلام ينال به رضاء مولاه عنه، وما يظنه بعض أهل التلوين من أن الراضى عن الله لا يحس بألم البلاء، ولا يشعر بمر القضاء، وذلك مما يجدونه من شديد الشوق وعامل الحال، ومثلهم مثل من جلس فى محل فاشتعلت فيه نار، فخاض النار غير شاعر بألمها لينجى نفسه، فإذا تجاوز النار ورجع له صوابه، بكى بما ألم بجسمه من الآلام، فكذلك أهل الأحوال قبل مقام التمكين، لهم شطحات يدعو إليها قهرمان الحال عن علم اليقين، ولولا الإحساس بالآلام والشعور بمر البلاء، لما بلغ العبد مرتبة الرضا، ولكان غير مجاهد، لأنه يكون كالجمادات والنباتات والأفلاك، وإنما ينال أهل الرضا الرضاء بمجاهدة بشريتهم القوية وأطماعهم الردية، ومن لم يكن كذلك فهو والبله سواء. نعم قد ينعم الله تعالى أصفياءه بالبلاء لما يواجههم به من كشف أسرار الحكمة وعظيم النعمة وجلى المنة، فتكون النفس مع آلامها تقبل مر القضاء وفادح البلاء، مما لا تستوجبه معصيته لربه، ليفوز بالرضا من الله وجزيل العطاء والفضل منه.

وقد شرحت هذا المقام شرحاً وافياً فى قسم علوم اليقين من كتاب " أصول الوصول" وفى كتاب " الفرقة الناجية" وكتاب " شراب الأرواح" مستوفياً فراجعه لنيل المزيد من العلم، ولتتضح لك المحجة ولتستبين لك الحجة ويقوى يقينك، أورد لك ما ورد عن رسول الله ﷺ فى ذلك، وما قام به أصحابه والتابعون من بعدهم من أئمة أهل هذا المقام رضى الله عنهم.

فضائل الرضا

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاءوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم الصراط؟

فيقولون: ما رأينا الصراط، فيقال لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ، فيقولون: ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضله ورحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه، ونرضى باليسير بما قسمه الله لنا، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا).

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله عنه بالقليل من العمل) وقال ﷺ: (يتجلى لنا ربنا ضاحكاً). وقال بعض العلماء: (أعرف فى الموتى عالماً ينظرون إلى منازلهم من الجنان فى قبورهم، يغدى عليهم ويراح فى الجنة بكرة وعشياً وهم فى غموم وكروب فى البرزخ، لو قسمت على أهل البصرة لماتوا أجمعين، قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضا نصيب). وما ورد فى دعاء النبى ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى إذا كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب، والرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين).

أقوال الأئمة فى الرضا

قال رسول الله ﷺ: (اللهم إنى أسألك الصحة والعافية والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر)، وقال ﷺ: (إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحسدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله). إن رزق الله لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده كُره كاره، وإن الله بحكمه جعل اليسر والفرج فى الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

وقد كان سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه قد استلقى على بطنه فبقى ملقى على ظهره مدة طويلة لا يقوم ولا يقعد، وقد ثقب له فى سريره موضع لحاجته، فدخل عليه مطرف بن عبد

الله الشخير، فجعل يبكى لما رأى من حاله، فقال له سيدنا عمران لِمَ تبكى؟ فقال لأنى أراك على هذه الحال العظيمة، فقال: لا تبكى فإنى أحبه إنى أحبه إنى أحبه، وقال: أأخبرك بشئ لعل الله أن ينفعك به واكتم حتى أموت: إن الملائكة تزورنى فأأنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها.

ولما قدم سيدنا سعد بن أبى وقاص ﷺ إلى مكة وقد كف بصره، جعل الناس يهرعون إليه ليدعو لهم فجعل يدعو لهم. قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى، فقلت يا عم أنت تدعو للناس فيشفون فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك، فتبسم ثم قال: يا بنى قضاء الله أحب إلى من بصرى.

وقال بعض العارفين: ذنب أذنبته أنا أبكى عليه ثلاثين سنة، قيل وما هو؟ قال: قلتُ لشئ قضاه الله ليته لم يقضِهِ أو ليته لم يكن. وقال بعض السلف: لو قُرض لحمى بالمقاريض كان أحب إلى من أن أقول لشئ قضاه الله لم يقضه.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: (ها هنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال: يا حبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال فهل أنست به؟ قال: لا، قال فهل رضيت عنه؟ قال: لا . قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال نعم، قال: لولا أنى أستحى منك لأخبرتك أن معاملتك خمسين سنة مدخولة).

وقال بشر بن بشار المجاشعى وكان من العلماء: قلت لعابد أوصنى قال: (الق نفسك مع القدر حيث ألقاك، فهو حرى أن يفرغ قلبك، ويقل همك، وإياك أن تسخط ذلك فيحل بك السخط، وأنت عنه فى غفلة لا تشعر به، فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم).

وقال بعض السلف: (ذروا التدبير والاختيار تكونوا فى طيب من العيش، فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم) وقال أبو العباس بن عطاء: (الفرج فى تدبير الله لنا، والشقاء كله فى تدبيرنا). وقال سفيان بن عيينة: (من لم يصلح على تقدير الله لم يصلح على تقدير نفسه).

وقال أبو العباس الطوسى: (من ترك التدبير عاش فى راحة). وقال عمر بن عبد العزيز

رحمه الله: (لقد تركتنى هؤلاء الدعوات وما لى فى شئ من الأمور كلها أرب إلا فى مواقع قدر الله)، وكان كثيراً ما يدعو: (اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل شئ أخرته، ولا تأخير شئ عجلته). وقال الفضيل: (الراضى لا يتمنى فوق منزلته).

وقال ذو النون: (ثلاثة من أعلام التفويض: تعطيل إرادتك لمراده، والنظر إلى ما يقع من تدبيره لك، وترك الاعتراض على الحكم، وثلاثة من أعلام التوحيد: رؤية كل شئ من الله، وقبول كل شئ عنه، وإضافة كل شئ إليه). وقال بعض العارفين: (أصل العبادة لا تَرُد من أحكامه شيئاً، ولا تسأل غيره حاجة، ولا تدخر عنه شيئاً).

فوق إنسانيتى فوق العقول ... أن أرنى راضياً بعد القبول
الرضا من فوق روحى والنهى ... جملنى بالرضا هب لى الوصول
إن إنسانيتى سجن بها ... شغل قلبى بالحظوظ أنا الجهول
اجذبنى بالجمال ورضنى ... قد توسلت بمولانا الرسول
كيف أرضى سيدى إن لم أنل ... بالعناية عند مولاى المثول
رضا بالاجتبا إن الرضا ... جذبة الإحسان يعطى للفحول
وارض عنى جملنى بالهدى ... أقبلن بى سيدى كى لا أحول
فالعناصر داعيات للجفا ... وسع النعمى لذا العبد السئول

الباب السابع عشر

مقام الشكر

فضائل الشكر

قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم ٧، وقد أمر الله به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعل من الشكر حارساً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور، وهو غاية رضا الرب من عبده، أهله هم القليل من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ النحل ١١٤، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة ١٥٢، وقال جل جلاله عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ النحل ١٢٠-١٢١، وقال جل ثناؤه عن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ الإسراء ٣، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل ٧٨، وقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ آل عمران ١٤٤، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إبراهيم ٥، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ الإنسان ٢٢، ورضاء الرب عن عبده كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الزمر ٧، وقلة أهله فى العالمين تدل على أنهم هم خواصه، كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ سبأ ١٣.

وعن عطاء قال: (دخلت على عائشة رضى الله عنها مع عبيد ابن عمير فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: وأى شأنه لم يكن عجباً؟ إنه أتانى فى ليلة، فدخل معى فى فراشى (أو قالت فى لحافى) حتى مس جلدى جلده، ثم قال: يا بنت أبى بكر، ذرينى أتعبد لربى، قالت: قلت إنى أحب قربك، فأذنت له، فقام إلى قربة من ماء فتوضأ وأكثر صب الماء، ثم قام يصلى، فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً

شكوراً. ولم لا أفعل وقد أنزل على ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ آل عمران ١٩٠).

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ: (والله يا معاذ إنى لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) وقال عليه الصلاة والسلام: (ما أنعم الله على عبده نعمة فرأى عليه أثرها إلا كتب: حبيب الله شاكراً لأنعمه، وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرها إلا كتب: بغيض الله كافراً لأنعمه).

وفى المسند والترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: (اللهم أعنى ولا تعن علىَّ، وانصرنى ولا تنصر علىَّ، وامكر لى ولا تمكر علىَّ، واهدنى ويسر الهدى لى، وانصرنى على من بغى علىَّ، رب اجعلنى لك شكاراً لك ذكاراً لك رهاباً لك مطاوعاً، لك مخبتاً إليك أواهاً منيباً، رب تقبل توبتى واغسل حوبتى وأجب دعوتى وثبت حجتى واهد قلبى وسدد لسانى واسلل سخيمة صدرى).

أنواع الشكر

والشكر على ثلاثة أضرب: شكر بالقلب وهو تصور النعمة، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم، وشكر بالجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه.

أساس الشكر

والشكر مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

هذه الخمسة هى أساس الشكر، وبناؤه عليها، فإن عدمت منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر، وكل من تكلم فى الشكر فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور.

أقوال الأئمة فى الشكر

وقال الإمام القشيرى: الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته،

وجريان اللسان بذكره والثناء عليه. وقيل هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة. وقال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً. ويقربه قول الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة. وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقيل: هو إضافة النعم إلى وليها. وقال رويم: الشكر استفراغ الطاقة، يعنى فى الخدمة. وقال الشبلى: الشكر رؤية المُنعم لا رؤية النعمة، ومعناه أن لا يحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم لها والكمال أن تشهد النعمة والمنعم، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة، وكلما كان أتم كان الشكر أكمل، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه، ويعترف بها ويثنى عليه بها ويحبه عليها، لا أن يفنى عنها ويغيب عن شهودها.

وقيل: الشكر قيد النعم الموجودة وصيد النعم المفقودة، وفى الحديث: (الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره)، والفرق بينهما أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب، ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً، وقال سيدنا داود عليه الصلاة والسلام: (يا رب كيف أشكرك وشكرى نعمة على من عندك تستوجب بها شكراً؟ فقال: الآن شكرتنى يا داود)، وفى أثر إسرائيلى: (أن سيدنا موسى عليه السلام قال: يا رب، خلقت آدم بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماء كل شئ، وفعلت وفعلت، كيف أطيق شكرك؟ قال الله عز وجل: علم أن ذلك منى، فكانت معرفته بذلك شكراً لى)، وقال الجنيد وقد سأله سرى السقطى عن الشكر وهو صبى: الشكر ألا يستعان بشئ من نعم الله على معاصيه، فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك، وقيل: من قصرت يداه عن المكافآت، فليطل لسانه بالشكر، وفى أثر إلهى، يقول الله عز وجل: (أهل ذكرى أهل مجالستى، وأهل شكرى أهل زيادتى، وأهل طاعتى أهل كرامتى، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى، فإن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، ابتليتهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب).

وقيل: التزم سيدنا الحسن بن على عليهما السلام الركن وقال: يا إلهى، أنعمت علىَّ فلم تجدنى شاكراً، وابتليتنى فلم تجدنى صابراً، إلهى، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدة بترك الصبر، إلهى، ما يكون من الكريم إلا الكرم.

ويقال: شكر: هو شكر العالمين يكون من جملة أقوالهم، وشكر: هو نعت العابدين يكون نوعاً من أفعالهم، وشكر: هو شكر للعارفين باستقامتهم له فى عموم أحوالهم.

الشكر عند السالكين

هو شهود ما يلائمهم من النعم التى لا تحصى، والثناء على الله سبحانه وتعالى، بالقلب والجوارح واللسان قولاً وعملاً، لما تفضل به عليهم بعد الحب والإخلاص له سبحانه وتعالى لشهود تلك الأيادى السابقة، قال ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم)، وهذا الشكر خاص بأهل الإيمان، وإن ظهر أن غيرهم من أهل الكفر اشترك فيه معهم، فإن الخلق أجمعين من مؤمنين وكفار، يشعر بالسرور عند وجود ما يلائمه وبالشكر قولاً، ولكن أهل الإيمان امتازوا بأن الشكر منهم يكون بالجوارح والقلب واللسان مع الإيمان الكامل، وأما غيرهم من أهل الكفر بالله فإنهم إن شكروا فإن شكرهم يكون باللسان فقط لما يلائمهم، من مأكل ومشرب وعافية وجاه، وهذا لا يعد شكراً لله سبحانه وتعالى من وجوه:

أولها: أن قلوبهم منعقدة على غير الحق، والله لا يقبل عملاً من مشرك.

الثانى: أنهم قد يتلذذون بما حرمه الله تعالى ويفرحون بفعل الكبائر، ويرونها نعمة فيشكرون عليها، وكيف يشكر الإنسان ربه على معصية ويتلذذ بمخالفته ويفرح باقتراف الكبائر!!

الثالث: أن الشكر عمل خاص وهو صرف الجوارح فيما خلقت له، والاستعانة بالنعمة على نيل رضاء المنعم، وهؤلاء إن قالوا باللسان فقد صرفوا جوارحهم فيما يغضب الله، واستعانوا بنعم الله على ما نهى عنه.

ولا يتحقق الشكر عند السالكين إلا بعد أن تستبين لهم سبل الهداية، ويتضح لهم ما يحبه الله من الأعمال وما يكرهه، ويتحققون بتوفيق الله لهم، وإقامته سبحانه إياهم فيما يحب، لمشاهدة أنوار التوحيد بقدر مقاماتهم، وبنظر عيون الإيمان بالغيب بقدر مشهدهم، ولديها يكونون من الشاكرين. ومن شكر الله على ما يلائمه من النعم وما يسره له من الأيادى، دون ملاحظة تلك المعانى، فله من الشكر قسط يسير. ولِسِعَة فضل الله وعميم إحسانه

وعظيم بره، يقبله من العبد، ويهب به المزيد فى الدنيا والمثوبة فى الآخرة، لأنه سبحانه وتعالى يحب الشكر ويقبل يسيره.

ومن وفقه الله تعالى من السالكين للشكر، فقد أسبغ عليه نعمته، وأهله لنيل فضله العظيم. ومن السالكين من يظهر الشكر حياء من الناس أو خوفاً من شماتتهم أو تجملاً لهم، وهذا لا يعد شكراً ولكنه يعد نكراً، فإن الشكر من أعلى مقامات اليقين، ولا يتحقق للسالك إلا بعد التوبة والإخلاص، والتوكل والرضا والتفويض، لأن تلك المنازل معارج للشكر، وليست منزلة الشكر من المنازل التى تدعى، فإنها منزلة أهل المحبة والمحبة أعلى من أن يدعيها مُدع، لأن أحوالها العلية تقتطع العبد إلى حضرة المحبوب الأول سبحانه اقتطاعاً لا يجعل له ميلاً إلى الخلق، ولا نظراً إليهم ولا رغبة فيهم، فلا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله.

وكيف يدعى السالك أنه فى منزلة الشكر، وعلام الغيوب يطلع على سرائر القلوب؟

والشكر من أجمل حلل المقربين، وتلك الحلل زينة للقلوب لا زينة الجوارح. فمن ادعى أنه من الشاكرين مُجملاً ظاهره للخلق غير مراقب ربه بقلبه، لا يلبث إلا ريثما يبتلى فتكشف عنه تلك الستارة، فيفضح فى الدنيا قبل الآخرة. ومن تجمل للحق ألقى الله عليه محبة منه، وعظمه فى قلوب عباده. ومن السالكين من يجمل باطنه بالشكر، ملاحظاً نيل المزيد من النعمة والجاه فى الدنيا، فتغلب نيته عمل قلبه وجوارحه، وتلك المنزلة من أدق منازل الطريق، وأخفاها معالم على السالك، لأنها منزلة خاصة أهل الخاصة، قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ سبأ ١٣، فلينتبه السالك فى هذه المنزلة، وليحافظ على مراقبة ربه جل جلاله، وليدم محاسبة نفسه. ولأن يتحقق بالمنزلة غير شاعر بأنه فيها، خير من أن يتحقق أنه نزل تلك المنزلة وهو بعيد عنها.

وأهل السلوك فى الحقيقة غافلون عن منازلهم، لأن الله تعالى منَّ عليهم بالعيون التى تشهدهم بأنهم صغار ناقصون، فى أشد الضرورة إلى التخلية من الرذائل، مع ما منَّ الله بهم عليهم من الفضائل التى أخفاها عنهم رحمة بهم. وكم من ولى محبوب لله، مقرب يذوب قلبه من الخوف يبكى ليله من خوف العذاب، ينظر إلى من هو فوقه علماً وتقوى، فتتضاءل فى نظره نفسه، وينظر من هو دونه فى الدنيا فتعظم نعمه لديه، وكم من جاهل مغرور ينظر إلى

من دونه فى الدين، فيرى نفسه محسناً، وإلى من فوقه فى الدنيا فيرى نفسه محروماً، وشتان بين من صعد كلمه الطيب إلى الله ورفع عمله الصالح إلى الله، فرأى نفسه ليس له كلم طيب وعمل صالح، وبين من رد عليه كلمه وعمله، فرآه كثيراً، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر ١٠.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يبكون خوف السابقة، مع ما تفضل الله به عليهم من الشكر، بأنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه، وما بشرهم به رسول الله ﷺ بأن لهم الجنة، ولكن الله قبل كلمهم الطيب فصعد إليه، لأنها فيه وإليه وبه سبحانه ولم يبق لهم إلا احتقار أنفسهم وتعظيم خالقهم والتحقق بالعجز عن القيام بالشكر.

منحنى الله وإخوانى المؤمنين ببركتهم التوفيق لما يحب من القول والعمل والحال، ويتفضل علىَّ وعليكم بما به يدوم شكرنا وذكرنا وطاعتنا له سبحانه ، آمين.

الشكر والصبر والاستغفار

أولاً منازل العبد الكامل

كمال العبد فى ثلاثة أمور: إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلاه صبر، وإذا أذنب استغفر.

وهذه المنازل الثلاثة عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه فى الدنيا والآخرة، لأن العبد يتقلب بين هذه الأحوال الثلاث، نعم من الله تعالى تترادف عليه فيزيدها بالشكر.

ثانياً أركان الشكر

والشكر مبنى على ثلاثة أركان: الاعتراف بالنعم باطناً، والتحدث بها ظاهراً، وتصريفها فى مرضاة موليها ومعطيها، ومع كل فإن فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره فى شكرها.

ثالثاً أركان الصبر

والصبر: هو حبس النفس عن السخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية.

ومدار الصبر على هذه الثلاثة: فإذا قام به العبد كما ينبغى، انقلبت المحنة فى حقه منحة،

واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً، لأن الله لم يبتلينا ليهلكنا، وإنما ابتلانا ليمتحن صبرنا وعبوديتنا.

وعلى ذكر العبودية، فإن لله تعالى على العبد عبودية فى الضراء كما له عبودية فى السراء، أى أن له سبحانه على العبد عبودية فيما يكره، كما له عليه عبودية فيما يحب.

رابعاً ألوان العبودية فى السراء والضراء

وأكثر الناس يعطون الله العبودية فيما يحبون فقط، غير أن مراتب الناس وأقدراهم، ومنازل قربهم من ربهم، تكون بقدر شأنهم فى إعطاء العبودية فى المكاره، فالوضوء بالماء البارد فى شدة الحر عبودية، ومباشرة الزوجة الحسناء عبودية، والنفقة على العيال وعلى النفس عبودية، وهذا من ألوان العبودية فى السراء لأن النفس تميل إليها، فإذا أتاها الإنسان وهو صادق النية، أثيب عليها لأنها عبودية لله فيما يحبه الإنسان، وفى الحديث: (وفى بضع أحدكم صدقة).

ومن ألوان المكاره الوضوء بالماء البارد فى شدة البرد، وترك المعصية التى اشتدت إليها النفس، وكذلك النفقة فى المكاره وفى الضراء.

وقد ذكرنا لك ألوناً من العبودية فيما يحب الإنسان، وألوناً من العبودية فيما يكره، وذكرنا أن أكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون فقط، ولكن فرق عظيم بين العبوديتين، فمن كان عبداً لله فى الحالتين قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب، فذلك الذى صدقت عبوديته، وأصبح من عباده الذين ليس لعدو الله إبليس عليه سلطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ الحجر ٤٢.

خامساً الاستغفار باب العودة إلى الله

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلم عباده إليه ولا يسلطه عليهم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ص ٨٢-٨٣، فاستثنى عباد الله المخلصين، لأنه لا سلطان له عليهم، وذلك واضح مما تقدم، فهؤلاء الصادقون فى عبودية الضراء وعبودية السراء هم فى حرز الله وحفظه وتحت كنفه، على أنه ليس معنى هذا أنه يستحيل وقوع أحدهم فى

معصية، وإنما شأنه شأن الرجل الذى يغتاله اللص، ولا يبتلى العبد إلا إذا وقع فى الغفلة والشهوة والغضب، وقد كان آدم أبو البشر عليه السلام من أحلم الخلق وأرجحهم عقلاً وأثبتهم جناناً، ومع هذا، فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فى معصية ربه، وإبليس لا يتمكن من المؤمن إلا غيلة وعلى غرة وغفلة، حتى قد يظن المؤمن أنه لا يستقبل ربه عز وجل بعدها، وأن تلك الوقعة قد اجتاحته وأهلكته، ولكن الله يفتح لعبده المؤمن باب العودة إليه بالتوبة، والندم والاستغفار والانكسار والذل والافتقار والاستعانة، وصدق اللجوء إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب منه سبحانه، بما يمكن أن يقدمه العبد من الحسنات، وعندها تعلو مرتبة المؤمن بسبب ذلك مرتبته الأولى قبل المعصية، وعندها يقول الشيطان: (يا ليتنى تركته ولم أوقعه).

سادساً معصية تفقرنى إليك خير من طاعة توجب الفخر عليك

وهذا معنى قول بعض العارفين: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفاً منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة، بما ترتب على هذا الذنب من أمور سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة، فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه شيئاً ويعجب بها ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً، ابتلاه بأمر يكسره به ويذل عنقه ويصغر نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم يجمعون على أن التوفيق هو أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك.

عجزى عن الشكر شكر الله بالحال ... فإن قولى وفعلى دون آمالى
لم يحص نعماك عقلى بل ولا روحى ... جلت عن الحصر عن تفصيل إجمال
والروح منك وأنفاس النفائس بل ... محيط عرشك لى من فضلك العالى
والقول والفعل إحسان تمن به ... ومن أنا العبد هب لى الخير للآل

كل العوالم فى عجز فأشهدنا ... جمال وجهك فى جذب وإقبال
مولاى أنعمت فرحنا بفضلك فى ... دنيا وآنسنى حلى وترحالى
ورضنى عنك فى يوم اللقا حتى ... أجاور المصطفى فضلاً لسآل
هب لى المزيد جمالاً منك عممه ... يوم اللقا سيدى يسره فى الحال
به أعنى على نيل الرضا الزلفى ... والحب منك مجيب السؤل تسآل

❊ ❊ ❊

نعماك عن حصرها قد يعجز العقل ... وبعد هذا يوالى الجذب والفضل
والشكر يا سيدى من فوق طاقتنا ... فكيف نشكر ما لا يحصى القول
الخير منك يوالينا وأنفسنا ... نزاعة قد دعاها الغى والجهل
جوارحى نزعت للغى طامحة ... لما يلائمها والباعث والميل
لم يكبحنها وعيد وهى جامحة ... إلى المجالس وهو الصد والسفل
عجزت عن كبحها مولاى أدركنى ... وزك نفسى فإن النفس تنفعل
على يقين بأن الغى يوبقنى ... تولنى كى بخير الخلق أتصل
أيام عمرى انقضت فى الفحش فى ظلم ... أغث عُبيداً على مولاه يتكل
بغض إلى المعاصى عمرن قلبى ... حتى أفر لنيل الوصل أرتحل
العلم يهتف بالأعمال أو ينأى ... ما قيمة العلم إن لم يظهر الفعل
أعوذ من نفسى جوارحها ... إليه ألجأ قصدى كله الوصل
وجهت وجهى إلى مولاى مضطراً ... بدل خطاياى أو يهوى بى العدل
أشكو إلى الله نفسى زكها ربى ... وطهرنها من الأوزار قد تسلو
مولاى خذنى من فعل الجوارح قد ... أذاب قلبى وبالغفران قد أعلو
يسر عطاياك رضواناً وعافية ... وخير نعماك يولى منك يتصل
هداية منك توفيقاً لما ترضى ... والخير منك لأولادى به اتصلوا

مقام المحبة

بيان فى اشتقاق المحبة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ المائدة ٥٤، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة ١٦٥، وقال رسول الله ﷺ: (سمعت جبريل يقول عن رب العزة عز وجل: من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما شككت فى شئ أنا فاعله تشككى فى قبض روح عبدى المؤمن، يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا فرار منه، ولا يتقرب إلى بأحسن من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده) وقال رسول الله ﷺ أيضاً: (إن الله يحب من أحب لقاه، ويكره من كره لقاه)، وقال أيضاً: (إذا أحب الله العبد قال لجبريل: يا جبريل إنى أحب فلاناً فَأحِبه، فينادى جبريل فى أهل السماء: إنَّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيُحبه أهْلُ السماءِ ثم يُوضَعُ له القَبُولُ فى الأرضِ حتى يحبه أهلها).

وكما يحصل بخصوص المحبة يحصل بخصوص الكراهة. المحبة مشتقة من الحبة وهى البذور التى تسقط فى الأرض، فاسم حب قد جعل لمثل هذه الحبة، لأن المحبة هى أصل الحياة، كما أن حبة هى أصل النبات، فكما أن الحبوب إذا بعثرت فى الأرض اختفت، ونزل عليها الماء والشمس والبرد والحر، ومع ذلك لم تفسد باختلاف الفصول، لكنها تنمو وتخرج الزهور وتعطى الثمار، فكذلك المحبة إذا سكنت فى القلب لم تتغير بحضور ولا بغيبة، ولا بألم ولا بلذة ولا بفرقة ولا بجمع.

ورأى آخر: هو أن المحبة مشتقة من الحب، وهو القدر المفعم بالماء العذب، لأن المحبة إذا جمعت فى القلب وملأته لا توجد محلاً للتفكر فى غير الحبيب، والحب سمى بالمحبة لأنه يمحو من القلب كل ما سوى المحبوب.

ورأى آخر: هو أن المحبة مشتقة من الحُب، وهو (السبية) التى تعلق عليها القِرْبة، لأن

المحب يحمل بكل سهولة كل ما فرضه المحبوب أيا كان ذلك شرفاً أو عيباً أو ألماً أو سروراً أو عدلاً أو قذى.

ورأى آخر: المحبة مشتقة من الحب، جمع حبة، وهى سويداء القلب التى تسكن فيها المحبة، ففى هذه الحالة المحبة تسمى على اسم مسكنها، وذلك تعبير متداول فى اللغة العربية.

وبعض العارفين يشتقونها من الحبيب، وهو البرد الذى ينزل مع شدة المطر، لأن المحبة هى ثوران بالقلب فى اشتياق إلى الجمع بمحبوبه، وكما أن الجسم يبقى مع وجود الروح كذلك القلب يبقى مع المحبة، والمحبة تبقى مع مشاهدة الجمع بالمحبوب، والحب اسم لخالص المحبة، لأن العرب يسمون (نن العين) بإنسانها، كما يسمون سويداء القلب بحبة القلب، وتلك هى كرسى المحبة، وأما الأولى فهى للرؤيا، لذلك فالقلب والعين نظيران فى المحبة، والمحبة هى ميل القلب بجاذبة قاهرة وهى محبة العبد لربه.

محبة العبد لله

أما محبة العبد لله هى إيثار العبد ربه على كل شئ حتى يتأله له دون كل شئ، ويشتغل بذكره عمن سواه، ويحترق حباً فيه وشوقاً إليه حتى تكشف له الحجب فيراه.

محبة الله للعبد

أما محبة الله للعبد هى إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين، يرفعهم به إلى مقام المقربين، ويشرفهم به بمعية رب العالمين، ويواجههم به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وقد شرحت مقام المحبة وأحوالها فى كتاب " أصول الوصول" وغيره، ولما كان الله سبحانه وتعالى علياً عظيماً فلا تدركه الأبصار، ومنزهاً عزة ومجداً لا تجانسه الأرواح الطاهرة، ولا تشاكله العقول الكاملة، فكيف يدانيه الحس أو الجسم!.

اتباع سيدنا رسول الله ﷺ

عين محبته سبحانه

ومتقرر أن السعادة والخير لا ينالان إلا بالقيام بما يحبه ويرضاه، والسبيل إلى نيل محابه هو اتباع رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام، لأنه سبحانه وتعالى صاغ نفوسهم الطاهرة من أصفى الجواهر النورانية الروحانية الربانية، واصطفاهم لنفسه، فكانوا وسيلة إلى خلقه ووسائل خلقه إليه سبحانه وتعالى، بما كاشفهم به من أسرار غيبه المكنون وأنوار سره المصون، وما واجههم به من جماله وبهائه وضيائه ونوره وجلاله وكماله، ولما كان كل رسول جاء إلى قومه ليطهرهم من نجاسات الأخلاق التى كانوا عليها، ويبين لهم خلقاً من أخلاق الله تعالى، اقتضت حكمة الله تعالى أن يخص كل رسول بآية من الآيات، التى يمحو الله بها ما كانت عليه أمته من الضلال، ثم يرسل رسولاً آخر بحسب استعداد الأمة وما كانت عليه، حتى أهل المجتمع الإنسانى للكمال المطلق، وللوصول إلى المقام الأعلى الذى أعده للإنسان فى الدنيا والآخرة، بعث خاتم الرسل سيدنا محمداً ﷺ مُتمماً لمكارم الأخلاق فاتحاً للرسالة، لأن الله سبحانه كما عاهد بنى الإنسان يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، ألا يشركوا به أحداً، واثق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بعد أن منحهم الحسنى أنهم يكونون أتباعاً لحبيبه ومصطفاه ﷺ إذا ظهر فى زمان رسول منهم، تنبيهاً بقدره عند الله تعالى، وإعلاناً من الله سبحانه أنه الرسول المبعوث بأكمل الكمالات التى يحبها الله، ويرضاها، لأن كل رسول منهم محتاج إلى المقام الأكمل، الذى لا ينال إلا به ﷺ متى ظهر فى أى زمان، ومن لم يدرك زمانه من أهل الإيمان بالله وبرسله الصادقين، فهو على الحال الكاملة حتى يظهر ﷺ ومن خالفه من أهل الإيمان فى زمانه، كان كافراً بالله وبرسله جميعاً.

فإن المؤمن بالتوراة والإنجيل لا يكون مؤمناً إذا خالف رسول الله بعد شروق شمسه، لأن تكذيبه جحود بالله تعالى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام ٣٣، فهو ﷺ رسول الرسل، وكتابه مهيمن على جميع الكتب، لأنه صلوات الله عليه وسلامه جاءنا بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الأعراق، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ النساء ٨٠، ومن وفقه الله تعالى لاتباع حبيبه ﷺ كان عاملاً بمحاب الله

ومراضيه، ولا يعمل بمحاب الله ومراضيه إلا محبوب الله تعالى، لأن كل محب لله محبوب لله تعالى على قدر كماله العلمى اليقينى، ولم تكمل تلك الحقائق فى كتاب سماوى قبل القرآن، وليس المتخلق بخلق واحد من أخلاق الله تعالى كالمتخلق بجميع أخلاقه سبحانه، ولا العامل بعمل واحد محبوب لله كالعامل بجميع محابه سبحانه. فإن نوحاً عليه السلام طلب من قومه ترك عبادة الأصنام، وصالحاً طالب قومه بالمساواة بينهم، ولوطاً عليه السلام نهى قومه عن الفاحشة القبيحة، وموسى عليه السلام طالب أعداءه بالحرية لبنى إسرائيل، وعيسى عليه السلام طالب قومه بالخلق الحسن والرجوع إلى الأثر، وجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما جاءت به الرسل، وزادنا الله من فضله ما به نحظى بمعيته وعنديته، فيكون معنا، ونكون معه، سبحانه، ونكون عنده ويكون عندنا كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ النحل ١٢٨، وقال سبحانه: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر ٥٥، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الأعراف ٢٠٦.

تخصيص الأمة المحمدية بالمقامات العلية

هذه المقامات العلية لم يتفضل الله بها على أكمل أتباع الرسل السابقين، لكنه سبحانه خصنا بها دون غيرنا، لما أكرمنا به من محابه ومراضيه التى جمعت لنا الخير كله، فرسول الله ﷺ خير الرسل قدراً وأفضلهم منزلة وأنفعهم للعالم أجمع، وكيف لا والحجة قائمة والمحجة واضحة والحقائق جلية! أقامه الله مقامه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الفتح ١٠، وتفضل عليه سبحانه بخير الفضل بلا سؤال مما يتفضل به على أولى العزم بعد السؤال، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ النجم ٨-١١.

أثبت لحبيبه القرب بلا بين حتى وقعت العين على العين، وأنه ﷺ فى قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ النجم ١١، على رواية تشديد الذال، أى ما كذب قلبه بصره فرأى ﷺ ببصره ما رآه بقلبه، وموسى عليه السلام يقول: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۖ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ الأعراف ١٤٣، وموسى عليه السلام يقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ طه ٢٥، والله يقول لحبيبه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ الشرح ١، وموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً، فلم يرشدوا، وسيد الرسل ﷺ يقول الله تعالى مبيناً لقدره: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ النساء ٨٠.

ويقول رسول الله ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكنه أخى وصاحبى)، ويقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ التوبة ٦٢، وفى إفراد الضمير (هاء) من مضنون العلم ما لا تفى به الإشارة، فظهر جلياً أن اتباعه ﷺ وضعه الله تعالى سبباً لمحبته للعبد المتبع، وهو سبحانه مسبب الأسباب، وتلك الآية الشريفة بينت سبيل النجاة، فمن خالفه ﷺ، وادعى محبة الله تعالى، كذب على نفسه.

التباس الحال على العمال

الحال عندنا هو الحُجة التى تقوم على كمال الاتباع لرسول الله ﷺ، فإن الشريعة المطهرة جاءتنا بالرخص والعزائم، والرخصة شئ محدد ومعدود، والعزائم درجات، والشريعة هى الطرق الواسعة التى تطيقها كل النفوس على السواء، فكل ما جاء فى الشريعة المطهرة هو

الوسط الذى لا يتجاوزه الغالى فيضل، ويتساهل فيه البطئ فيزل، ولأهل العزائم إذا عملوا بما علموا على الوجه الأكمل ميراث ينالونه من النبوة بعد تزكية نفوسهم، يتفضل الله به عليهم بقبس من مشكاة أنوار رسول الله ﷺ بالإلهام الإلهى، يشهدون به آيات الله تعالى ويمنحون به علم ما لم يكونوا يعلمون.

قال ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)، فقد تقهرهم أحوالهم، فينكر عليهم من لم يبلغوا مقامهم، ويتشبه بهم من لا بصيرة لهم، فإن الشريعة تأمر بالسعى فى الأرض، والأكل من رزق الله تعالى، وقد يقوى الوجد عند أهل العزائم فيمشون فى الأرض للأكل من رزق الله، فيرزقهم الله تعالى غذاء القلوب، بما يرونه من الآيات، بدليل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فصلت ٥٣، فنفعهم الله بهذا الرزق طلب رزق الأجسام، ويسر لهم ما لابد لهم منه، فيتركون العمل فى الدنيا للدنيا، ويعملون فيها لله، بغيةً فى نيل فضله ورضوانه، فيكون المنكر عليهم جاهلاً بحالهم، والمسلم لهم من غير بصيرة تائهاً شاطحاً، وهم رضى الله عنهم يسارعون إلى الخير، ويدعون ربهم رغباً ورهباً اتباعاً لرسول الله ﷺ، وتشبهاً به، ولو أن أهل الإنكار ذاقوا جرعة من محبة الله تعالى لذابت قلوبهم شوقاً إليه، ولانكشفت لهم الستائر عن حقيقة الدنيا ففروا منها، قياماً فيها شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، عمالاً لله تعالى بالإخلاص، واليقين ومحبة الله تعالى، فضلاً منه، ويؤثر به من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ المائدة ٥٤، فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ﴾، أكبر بشرى للمؤمنين تثبت أن أمة سيدنا محمد ﷺ مخصوصة بهذا الفضل من أوله إلى أن تقوم الساعة، وليس هذا الفضل خاصاً بالصحابة، بل هو عام لجميع المسلمين فى أى زمان ومكان، لأن معجزة النبى ﷺ تدوم لأمته وإن بعد عنها، فإن الله أنزل المن والسلوى لبنى إسرائيل معجزة لموسى، ولما توجه موسى لميقات ربه أبقى تلك المعجزة لبنى إسرائيل فى غيبة سيدنا موسى، وبعده زماناً ومكاناً، فمعجزته ﷺ من اختيار رجال من أمته، وإيثارهم بمحبته تعالى لا تغيب من الأمة وإن بعد زمانه بدليل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ﴾ المائدة ٥٤، ومعلوم أن سوف للزمان البعيد، فالله يبشرنا بإظهار رجال يحبهم ويحبونه فى كل زمان، وقد رأتهم عيوننا، وسمعت أخبارهم آذاننا

بدليل قوله ﷺ: (لا يزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله).

وها نحن فى هذا الزمن المتأخر، نسمع بأنصار الله فى الأناضول، القائمين لله تعالى يجاهدون فى سبيله أعداءه ويجددون سنته، ونرى أفراداً من ورثته ﷺ يصدعون بالحق، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ينوعون الأفكار، ويجددون السنن ويبينون الحكمة والآيات، ويملئون القلوب يقيناً وحباً بعباداتهم وإشاراتهم وأحوالهم، ولا يخفون إلا على الخفافيش.

كل هذا الخير العظيم الذى فزنا به جماعة المسلمين هو بركة من بركات رسول الله ﷺ، ووابل من غيثه المحيى للقلوب التى يجذبها إلى علام الغيوب، وقد أشرقت شمسه المحمدية فى شهر ربيع.

كل المقامات قبل الحب تعريف ... والحب غيب له المحبوب موصوف
الحب جمع وفرق فى منازلة ... بالاتحاد على الأعراف موقوف
فى جانب الطور إنسانيتى سترت ... عنى وبوركت والمشتاق ملهوف
نوديت من جانب التقديس مرتشفاً ... عبداً وقلبى بمن ناداه مألوف
شاهدت فى الحب ناراً قبل معرفتى ... حيث المعنى بضوء النار معروف
صارت لى النار نوراً بعد معرفتى ... قلبى على الوصل مضطرب ومعكوف
فى جانب الأيمن الأنوار تظهر لى ... فى بقعة بوركت كشفاً وتصنيف
الحب منه له معنى ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ ... والحب منى له والعبد موصوف
وصف به صرت متحداً ومنفرداً ... قربى بحبى وبدئى فيه تعريف

تم بحمد الله

الفهرس

المقدمة

المقامات نتائج مشاهد التوحيد ٥

الباب الأول

مقام السماع ٧

السماع الممدوح شرعاً ٧

السماع المذموم شرعاً ٨

السماع عند السالكين ٩

السماع عند الواصلين ١٠

أعلى مقامات السماع ١١

عذر من أنكر السماع ١٣

الباب الثانى

مقام التسليم ١٤

التسليم عند السالكين ١٦

التسليم عند الواصلين ١٦

التسليم عند أهل التمكين ١٩

الباب الثالث

مقام التهذيب ٢٠

التهذيب عند السالكين ٢٠

التهذيب عند الواصلين ٢١

التهذيب عند أهل التمكين ٢٢

الباب الرابع

مقام اليقظة ٢٥

اليقظة عند السالكين ٢٥

اليقظة عند الواصلين ٢٦

اليقظة عند أهل التمكين ٢٦

الباب الخامس

الرعايــة ٢٧
الرعاية عند السالكين ٢٨
الرعاية عند الواصلين ٢٨
الرعاية عند أهل التمكين ٢٩

الباب السادس

مقام المراقبة ٣٠
المراقبة عند السالكين ٣٠
المراقبة عند الواصلين ٣٠
المراقبة عند أهل التمكين ٣٢

الباب السابع

مقام الإخلاص ٣٤
الإخلاص عند السالكين ٣٥
الإخلاص عند الواصلين ٣٥
تنبيه ٣٦
الإخلاص عند أهل التمكين ٣٧

الباب الثامن

مقام التوبة ٣٩
نيل أنوار التوبة ٣٩
مشاهد أهل الصفا فى التوبة ٣٩
مشاهد التوابين ٤٠
لطائف التوبة ٤٠

الباب التاسع

مقام الصبر ٤٢
أنواع الصبر ٤٢
جيش الحق وجيش الباطل ٤٣
الصابرون أئمة للمتقين ٤٤

الصبر عند السالكين ٤٦
أولاً: صبر السالك عن المعصية ٤٦
ثانياً: تبصرة السالكين ٤٦
الصبر عند الواصلين ٤٨
أولاً: صبر الواصل على الطاعة ٤٨
ثانياً: تنبيه للواصلين ٤٩
الصبر عند أهل التمكين ٤٩

الباب العاشر

مقام الرغبة ٥١
الرغبة عند السالكين ٥١
الرغبة عند الواصلين ٥٢
الرغبة عند أهل التمكين..... ٥٢

الباب الحادى عشر

مقام الحرمة ٥٤
الحرمة عند السالكين ٥٤
الحرمة عند الواصلين ٥٤
الحرمة عند أهل التمكين ٥٥
أولاً: الحرمة عند أهل التمكين فى مقام البسط ٥٥
ثانياً: الحرمة عند أهل التمكين فى مقام السرور ٥٦
ثالثاً: الحرمة عند أهل التمكين فى مقام الشهود ٥٨

الباب الثانى عشر

مقام الزهد ٦٠
الزهد عند السالكين ٦٠
الزهد عند الواصلين ٦١
الزهد عند أهل التمكين ٦١

الباب الثالث عشر

مقام الورع ٦٢

الورع عند السالكين ٦٢
للسالكين أحوال فى الورع ٦٢
الورع عند الواصلين ٦٣
الورع عند أصحاب رسول الله ﷺ ٦٣
الورع عند أهل التمكين ٦٣

الباب الرابع عشر

مقام التوكل والتفويض ٦٥
التوكل عند السالكين ٦٥
التوكل عند الواصلين ٦٥
التوكل عند أهل التمكين ٦٦
التفويض ٦٨

الباب الخامس عشر

مقام الثقة بالله تعالى ٧١
برهان ذلك ٧٢
الثقة عند السالكين ٧٣
الثقة عند الواصلين ٧٤
الثقة عند أهل التمكين ٧٥

الباب السادس عشر

مقام الرضا ٧٧
الفوز بالرضوان الأكبر ٧٧
الرجوع إلى الله عين الرضا عنه ٧٨
الغضب على النفس عين الرضا عنه سبحانه ٧٩
الرضا عن الله فى جريان قضائه وقدره ٧٩
فضائل الرضا ٨٠
أقوال الأئمة فى الرضا ٨١

الباب السابع عشر

مقام الشكر ٨٤

فضائل الشكر ٨٤
أنواع الشكر ٨٥
أساس الشكر ٨٥
أقوال الأئمة فى الشكر ٨٥
الشكر عند السالكين ٨٧
الشكر والصبر والاستغفار ٨٩
أولاً: منازل العبد الكامل ٨٩
ثانياً: أركان الشكر ٨٩
ثالثاً: أركان الصبر ٨٩
رابعاً: ألوان العبودية فى السراء والضراء ٩٠
خامساً: الاستغفار باب العودة إلى الله ٩٠
سادساً: معصية تفقرنى إليك خير من طاعة توجب الفخر عليك ٩١
الباب الثامن عشر
مقام المحبة ٩٣
بيان فى اشتقاق المحبة ٩٣
محبة العبد لله ٩٤
محبة الله للعبد ٩٤
اتباع سيدنا رسول الله عين محبته سبحانه ٩٥
تخصيص الأمة المحمدية بالمقامات العلية ٩٧
التباس الحال على العمال ٩٧
الفهرس ١٠٠